الفصل الثالث

مناقشة المفاهيم الخاطئة
في تجديد دين الأمة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث
مناقشة المفاهيم الخاطئة في تجديد دين الأمة

نحن مع حتمية العودة إلى الينابيع الأساسية لأخذ الإسلام من مصادره الصافية ، لأن الفكر الإسلامي علقت به عبر التاريخ مفاهيم غربية وغريبة عنه ، فقد أضحى مشجبًا تعلق عليه الكثير من الأشياء التي هي بعيدة عن الإسلام ، بل ومعادية له .

لقد وضعت المؤسسة الدينية في الغرب ـ أي المسيحية ـ لظروف خاصة بها الدين في مقابل العقل ، وبالتالي استطاعت أن تحكم على مستوى السلطة ، وعلى المستوى السياسي، وعلى المستوى الفكري ، وأن تجعل أحكامها ملزمة مما أوقع المؤسسة الدينية بما نسميه التسلط الكامل ، بحيث بدا العقل ضحية لهذا التسلط الكامل لرجال الدين "الكنيسة" التي وضعت الدين في مواجهة العقل .

لكن هذا الموضوع لايمكن نقله إلى الفكر الإسلامي أي لانستطيع أن نضع الدين والعقل على طرفي نقيض في الإسلام ، فمصادرة العقل باسم الدين أمرًا لايستوعبه الفكر الإسلامي بصورة أساسية ، ولايمكن أن يحدث في الإسلام ، وحتى في أوروبا نفسها كانت الكنيسة هي التي في مواجهة العقل ، وليس الدين المسيحي ؛ لأن الدين في ماهيته وفي تكوينه الأساسي لايصادر العقل ، إنما المؤسسات التي تحكم باسم الدين هي التي مارست هذا النوع من اغتيال العقل ومصادرته في أوروبا ؛ لذلك كانت ثورة العقل ، موجهة في حقيقتها ، وبالمعنى الدقيق في وجه الكنيسة ورجالها .

أما الدين الإسلامي فيرى العقل هو المصدر الأساسي لإنتاج العلوم ، والتي يشكل الاهتمام بها ، والاهتمام بإنتاجها عنصراً هامًا في حركة النهوض الإسلامي .

والأمر الثابت : أن النص الديني ـ سواء كان نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً شريفاً صحيحاً ـ لايتعارض مع منطق العقل .

ولكننا نجد بعض المناهج المعاصرة التي تحاول هدم الدين الإسلامي دون أن تظهر أو تعلن رفضها أو عدواتها للدين لعامة المسلمين ، وذلك عندما يحاول أصحابها أو دعاتها الظهور في ثوب المجدّد للدين،متناسية أن هذا الدين نسيج رباني يهيمن على ما سواه من الأديان والفكر البشري ، وهو كامل ومحفوظ من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ والملاحظ في هؤلاء أنهم يتعمدون تزييف الحقائق ، وتزوير التاريخ ، ومهاجمة ثوابت الإسلام بدعوى الإصلاح أو التجديد ، أو حرية الفكر التي يكفلها الإسلام لكافة المسلمين ، ونجدهم لايملكون الشجاعة للإفصاح عن حقيقة فكرهم ، وأهدافهم متخذين من ادعائهم الإسلام وأنهم مسلمون ستاراً ووسيلة لمهاجمة الإسلام ، ومحاولة العبث بعقول وقلوب المسلمين مستغلين كافة الظروف والوسائل التي تمكنهم من تحقيق أهدافهم .

ونحن هنا لانقصد مهاجمة أشخاص بأعينهم ،ولكن المقصود كشف الزيف والتزوير والتدليس لمثل هذا الفكر، ليتضح الأمر أمام عامة المسلمين ومثقفيهم ، فلا ينخدعون بأمثال هؤلاء ، والذين يلجأون لتبني بعض القضايا والهموم العربية والإسلامية، أو يتحدثون باسم الإسلام، أو حتي يتصدون لأعداء الإسلام مما يثير تعاطف المسلمين معهم كنوع من التدليس على المسلمين ، لإخفاء أهدافهم الحقيقية ، ولكن فكرهم لهدم الإسلام ، ولتسفيه العقيدة والشريعة الإسلامية ، ولتشكيك المسلمين في دينهم يظل هدفهم الذي يسعون لتحقيقه ، والذي يبرر

لهم كافة الوسائل للوصول إليه .

ونتناول هنا : بعض تلك المفاهيم الخاطئة حول مفهوم تجديد دين الأمة الإسلامية ، والتي ـ في الحقيقة ـ تهاجم وتعادي الدين الإسلامي ؛ وذلك حتى نجلي ما بها من ضعف وانحراف عن الإسلام .

ويحتاج هذا العمل إلى جهود جماعية ضخمة ومستمرة من كافة علماء الإسلام للتصدي له ، بل نستطيع القول أن جهود العلماء هنا لاتكفي ، والأمر يحتاج تدخل مباشر من الدول والحكومات الإسلامية على امتداد العالم الإسلامي لأسباب عديدة من أهمها :

ضخامة العمل وتنوعه وأنه يشمل كافة المسلمين ، وتعدد اللغات التي يتكلمها المسلمون ، وحاجته إلى الإعلام عنه ، والحاجة إلى تنقل العلماء والمفكرين الإسلاميين بين مختلف البلاد الإسلامية ، والدعم المادي الكبير الذي يعجز عنه الأفراد ، وكذلك الحاجة إلى الدعم السياسي . . . .

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول: مذهب النقد التاريخي للقرآن الكريم

نجد الآن بعض المناهج المعاصرة التي افتتنت بكل ماهو غربي [١] ، ركزت على القول أن النص القرآني هو نص إلهي ، ولكن في علاقة البشر مع هذا النص تصبح القراءة نسبية ، وليست قراءة كلية ، أي قراءة مطلقة ، ونحن البشر لسنا مهيئين لاستيعاب الحقيقة الكاملة المطلقة . وانزلق البعض في هذا الخطأ الأحمق

ونتناول بصورة مباشرة من هؤلاء على سبيل المثال :

د/ نصر حامد أبو زيد [٢] ، وذلك عندما مضى بعيداً ـ بعد مقدمات طويلة لمحاولة إخفاء حقيقة فكره ـ لاخضاع النص القرآني لهذه القراءات التاريخية المزعومة .

فالهدف حسب قوله : " أن يعاد فهم النصوص وتأويلها بنفي المفاهيم التاريخية الاجتماعية الأصلية، وإحلال المفاهيم المعاصرة الأكثر إنسانية وتقدماً !

---

(١) ويري المستشرق " جب " ان الباب قد انفتح لإعادة تفسير القرآن في ضوء المعرفة الحديثة ، ولابد انها تتطور إلى " النقد التاريخي " وهو الحل الوحيد – كما يرى – أمام الإسلام في المستقبل . الاقتباس من كتاب " أين الخطأ " ص ١٨٣ . صدر ١٩٧٨ م .

(٢) نادى نصر حامد أبوزيد بإخضاع القرآن لنظرية غربية مادية تنكر الخالق ، وتؤول الوحي الإلهي على أنه إفراز بيئوي أسطوري ، ناتج عن المعرفي التاريخي الغارق في الأسطورة . اسم هذه النظرية " الهرمنيوطيقا " ، و " مصطلح الهرمنيوطيقا " مصطلح قديم بدأ استعماله في دوائر الدراسات اللاهوتية عام ١٦٥٤ م ؛ ليشير إلى مجموعة القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني – الكتاب المقدس – .

■ يقول الدكتور عبدالوهاب المسيري عن الهرمنيوطيقا : " هي مشتقة من الكلمة اليونانية "Hermeneuin" بمعني يُفسِّر او يوضّح – من علم اللاهوت – حيث كان يقصد بها ذلك الجزء من الدراسات اللاهوتية المعني بتاويل النصوص الدينية بطريقة خيالية ، ورمزية تبعد عن المعنى الحرفي المباشر ، وتحاول اكتشاف المعاني الحقيقية والخفية وراء النصوص المقدسة " – كما تزعم – .

■ تم الاستفادة هنا من مقال . سليمان الخراشي " نصر حامد أبو زيد والهرمنيوطيقا " موقع . صيد الفوائد . شبكة الإنترنت .

مع ثبات مضمون النص ! ، إن الألفاظ القديمة لا تزال حية مستعملة لكنها اكتسبت دلالات مجازية "[١] .

فعندما يتناول ـ على سبيل المثال ـ آية الإرث التي تحدد نصيب الذكر ، ونصيب الأنثى انطلاقًا من قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: ١١] .

فيقول : إن هذا نص تاريخي بمعنى أنه يتوجه للمجتمع الزراعي مثلا ، وبالتالي فإن المتغيرات البنيوية التي تشهدها المجتمعات الإنسانية تفرض قراءة هذا النص على أنه نص تاريخي ، وليس نصًا مطلقًا فالمجتمع الزراعي أوالإقطاعي كان يتولى فيه الرجل مسؤلية الإنتاج والعمل ، وأما الآن في هذا العصر كما في أوروبا أو في عصر قادم فالمرأة تتولى عملية الانتاج جنبًا إلى جنب مع الرجل .

فما المبرر لأن يكون نصيب الرجل من الإرث ضعف نصيب المرأة من الإرث ؟!

فيجب تأويل النص ـ الآية ـ تأويلاً من خارج طبيعة النص ، فنؤلها تأويلاً تاريخيًا ، بالقول بأن هذه الآية خاطبت تاريخًا معينًا من مسار التطور الاجتماعي للبشر .

وبالجملة : فإن د/ نصر حامد أبو زيد يرى تطبيق التاريخية والتاريخانية على معان ومضامين وأحكام القرآن من العقائد إلى الأحكام ، وحتى القيم والأخلاق والقصص، الأمر الذي يعني نسخ كل مضامين القرآن الكريم وتجاوزها[٢] .

ويقول عن القرآن الكريم : إنه نص بشري ومنتج ثقافي ... لا قداسة له ،

---

(١) نقد الخطاب الديني . نصر حامد أبو زيد ص١٣٣ . سينا للنشر . القاهرة ط ٢ . ١٩٩٤ م . والطبعة الأولى عام ١٩٩٢ م .

(٢) نقد الخطاب الديني . د/ نصر حامد أبو زيد . ص " ٨٢ و٨٣ و٨٤ و٩٤ " .

وأنه بينه وبين الشعر الجاهلي ـ خاصة شعراء الصعاليك ـ تشابهًا كبيراً ... إلى غير ذلك (١).

هذا هو ملخص تلك النظرة في النقد التاريخي للقرآن الكريم بوضوح ، ونحن هنا نتناول الرد على هذا الاتجاه الفكري في نقاط يسيرة ـ إن جاز أن نسميه فكراً ـ .

❁ وهل هو يريد بناء المجتمع الحديث ، أو التجديد المزعوم في الإسلام ، أم ماذا يريد ؟ .

❁ وهل هو فكر يحترم العقل الإنساني ؟! .

أولاً : يجب أن يعي أصحاب العقول والمفكرين من أمثال هؤلاء أن الدين الإسلامي جاء لينشيء مجتمعاً إسلاميًا كما أراده الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ والإسلام هو الذي يغير المجتمع ، ويصبغه بالصبغة الإسلامية ، لا العكس ، وأن الإسلام جاء ليضع أسساً للأسرة والمجتمع الإسلامي في كل جوانبه ، وليس الموضوع موضوعًا اقتصاديًا صرفًا، ولكن يتعلق بالتصور الإسلامي في هذا الجانب ـ تكوين الأسرة ـ ، وفي غيره من الجوانب كما أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما فيه تحقيق السعادة للبشرية .

ثانيًا : بنظرة عقلية بسيطة ، نجد هذا التفسير التاريخي يخرج هذا النص وغيره عن مؤداه بحجة أنه عالج مشكلة تاريخية في زمن محدود ، وذلك يعني تفريغ الدين من محتواه ـ أي معناه ـ حسب اختلاف العصور ، وحسب اختلاف المجتمعات ، وأن العقل البشري يقوم بتغيير مدلول النص القرآني كما يشاء كل حسب الاحتياجات والأوضاع الاجتماعية،ولا علاقة للغة بفهم النص ، أي أنه

---

(١) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن . د/ نصر حامد أبو زيد . ص ٣٨ و٥٦ . الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي .ط ٥ ، ٢٠٠٠م . تاليف الكتاب ١٩٩٠ م .

لادين من عند الله ، والعقل البشري يكفي ليصوغ للبشر تشريعاتهم ، لأن كل النصوص القرآنية ابتعدت بالطبع عن زمانها ومكانها ومجتمعاتها ، أي لاحاجة لها . حقيقة هذا ما يقود إليه هذا الفكر الحديث ، أو هذا التجديد أو أي مسمى آخر .

فإذا مشينا مع هذا الفكر في موضوع الإرث على سبيل المثال فمن الممكن أن يختلف التأويل القرآني في نفس العصر ، فمثلاً آية الميراث تكون في مجتمع زراعي مثلا في صعيد أو ريف مصر أو أي بلد إسلامي تفسر حسب المدلول اللغوي للذكر مثل حظ الأُنثيين ، أما في مجتمع صناعي في مصر ، أو أوروبا ، أو أي بلد إسلامي فإنها تختلف ، وتصبح المرأة مساوية للرجل في الإرث ـ حسب التفسير التاريخي ، بل إن افترضنا ـ مستقبلاً ـ وجود مجتمع تمارس فيه النساء العمل ، ويعتمد على المرأة أكثر ، فربما نعدل القسمة ، وتصبح للمرأة مثل الذكرين .

وكيف بالله عليك إذا كان هناك اختلاط بين مجتمع إسلامي زراعي ، وآخر صناعي فأي المداليل التاريخية سوف تطبق ؟ ، أم أن لهذه الحالة مداليل جديدة ..... ؟!.

ومؤكد أننا ـ حسب التفسير التاريخي للقرآن الكريم ـ سننتقل إلى حقوق المرأة المترتبة على الطلاق، وأنها قد لاتستحقها أصلاً،فهي مساوية هنا للرجل في الجانب الاجتماعي ، بل قد تنتقل هذه الحقوق وتصبح من حق الرجل مع تغيير الأوضاع الاجتماعية ، وسنضطر إلى توقيف العمل بهذه النصوص أيضًا ، ويمتد الأمر للزواج وحقوق المرأة والمهر .. وغير ذلك ، فنوقفها ونغيرها حسب العصر ومتطلباته .... وهكذا سلسلة لا تتوقف من خلال هذا النقد التاريخي .

ونتسائل هنا : هل يوجد مثل هذا الفكر أو الخلط في أي قانون وضعي ؟!

- وهل تصاغ القوانين بهذه السذاجة ؟ .
- وهل تفسر أية قوانين أو تشريعات بعيداً عن لغتها ؟! .

لاشك أن هذه ترهات وسفسطة لا أكثر .

- وكم أود أن نرسله إلى الهند ليطبق التاريخانية في المجتمع الهندي ، أو على الأقل يعطينا المداليل التاريخانية حول هذا المجتمع .

فعلى الرغم من أنه مجتمع زراعي ، فإن المرأة في معظم الهند هي التي تدفع للرجل مهراً كبيراً كي يتزوجها .

- وهل يحق لنا نسأله هنا ما المدلول التاريخي هنا لهذا المجتمع ؟ .
- أم أن هذا النقد التاريخي خاص بالإسلام فقط ؟ .

وهكذا ، تتضح لنا ثمرة هذا الفكر ، والتعمد لإحداث الخلل ، والفوضي في المجتمعات .

- فهل هذا فكرٌ المقصود به بناء نظام اجتماعي يجاري العصر ، وينظم العلاقات بين الأفراد داخل المجتمعات ؟!
- وهل هذا فكرٌ يضمن للمجتمع حقوقه ، ويحقق لأفراده الانسجام والتعايش ؟! .
- أم أنه نوع من الهوس العقلي الذي يئس من عدائه للدين الإسلامي .

والأصح لهؤلاء ـ المفكرين ـ أنهم إذا اعتقدوا عدم صلاحية الدين الإسلامي ، وشريعته في عصرنا هذا أن يعلنوا ذلك بصراحة كما أعلنها غيرهم .

ولقد كانت هناك على مر العصور محاولات كثيرة لمثل هذه الافكار ، وقد أخذت أشكالاً وسمات متعددة،وكان أول عملها التغيير في التشريع الإسلامي ،

وبسط الحجج حول ذلك ، ثم محاولة إيجاد تشريعات أخرى ، وليست البهائية ببعيد! والإسلام نفسه أشار لهؤلاء الرافضين للإسلام ، والمعاندين والمعادين له .

أما محاولة هدم الدين الإسلامي من خلال الدين نفسه ، وبأيدي علماء المسلمين بهذه العبقرية الجديدة فلا يملك أي مسلم ركب الله فيه آلة العقل إلا أن يسخر من هؤلاء ـ المفكرين ـ ، بل وينفجر ضاحكًا من ضيق أفقهم ، وإعجابهم بجهلهم .

فلا علاقة هنا من قريب أومن بعيد لمثل هذه الهرطقة ، وذلك الهوس بالدين الإسلامي أو تجديده ، والذي هو من كمال الدين نفسه .

ثالثًا : إن المقصود هنا هدم الدين من أساسه ليس أكثر ، وقد وضح عداء هؤلاء للإسلام ونوجه هنا سؤالاً لهؤلاء وأسيادهم في الغرب :

❁ هل يُكره الإسلام أحداً على اعتناقه ، أو الدخول فيه ؟

من الثابت شرعاً أن من يدخل الإسلام مكرهًا لا يكون مسلماً ، ومن يدعي الإسلام ظاهراً ويرفضه من داخله فهو منافق غير مسلم عند الله ـ عز وجل ـ .

فإذا كان الإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه ، وهذه مسألة محسومة ، وإذا كان المسلمون يرتضون بكامل إرادتهم عقائد الإسلام وشريعته وأحكامه ، فلماذا لا تطبق عليهم ، وقد ارتضوها ؟!.

ومثل ذلك يوجد في جميع المجتمعات الإنسانية المتحضرة ،حيث تطبق عليهم القوانين التي ارتضوها ، مع الفارق أنهم قد لايرتضوها جميعًا ، وقد قبلها فقط مجموعة منهم ، والتي تسمى في أرقى المجتمعات ـ الأغلبية ـ على الرغم من أن عددها محدود ، ولاتعبر عن الجميع ، وهي فقط أغلبية ، وبالرغم من ذلك تفرض رؤيتها على الجميع ، ويخضع الجميع لتطبيق رؤية هذه الأغلبية ،

أليس هذا هو الواقع ؟ !.

أما المسلمون فهم ليسوا مجرد أغلبية ، بل هم نسبة ١٠٠٪حسب طريقتهم هم في التشريع ، ولكن نجد من يخرج لينتقص من المسلمين هذا الحق ، ومن يعيب عليهم ذلك ، ما هذا التناقض الفاضح لهؤلاء المتحضرين المثقفين والمفكرين !.

وندعوا هؤلاء المفكرين ـ أصحاب العقول والحضارة ـ أن يعقدوا مقارنة بين النموذج الإسلامي ، وما عداه ، بل وينتخبوا مايشاءون من نظمهم وقوانينهم ، والتي يستحيل معها إقامة عدالة ، أو مساواة أوتحقيق الأمن أو..... مابين فئات مختلفة من البشر في عالمنا المعاصر .

رابعًا : وأكثر من ذلك ليصمت هؤلاء ـ مدّعو الإسلام ، ومدّعو العلم والمعرفة والثقافة ـ أصحاب التاريخانية ، أو النقد التاريخي في تأويل نصوص القرآن الكريم كلام ربنا ـ عز وجل ـ الصحيح النسب .

نقول لهم إننا لو حاولنا تناول كتاب ـ على سبيل المثال ـ لأرسطو ، أو ابن خلدون ، أو شعر جاهلي ، ثم حاولنا تغيير ـ خارج إطار اللغة التي يستخدمها ـ ما أورده أيًا منهم ليعبر عن فكره أو مجتمعه لما قبل عاقل منا هذا ، لأن كل منهم يعبر عن فكر ما ، وتصور ما ، وظروف مجتمعه، إلى غير ذلك ، وبالطبع فإن الأمانة العلمية ترفض ذلك ، والعقل يرفض ذلك أيضًا ، ولكننا نجد هؤلاء عندما يتناولون كلام الله ـ عز وجل ـ الصحيح النسب العربي البيان يحاولون معه ماهو مرفوض مع نصوص البشر .

- فلماذا نُسقط هذه الأمانة عند تناولنا النصوص القرآنية ؟! .
- ولماذا نحاول التحريف في المفهوم ؟! والتحريف في الاستنباط الشرعي ؟! .
- ولماذا نحاول الابتعاد عن اللغة العربية،وإبعاد العقل عن مدلولات اللغة العربية؟!.

❁ وإذا كان هذا المنهج ـ النقد التاريخي ـ بهذا الإسلوب غير صالح للاستخدام مع الانتاج والإبداع البشري ، إذا فلأي إنتاج أو إبداع هذا المنهج ـ النقد التاريخي ـ إذاً ؟!.

❁ أليس ذلك مدعاة للتعجب ؟! أليس ذلك مدعاة للسخرية ؟ !.

❁ لاشك أن هؤلاء وأذنابهم عندما أيقنوا عجزهم التام عن التغيير ، أو التحريف في النصوص القرآنية ذاتها، تخيلوا أنهم يستطيعون التغيير في مدلولاتها ، وهم بذلك أثبتوا غباءً أكثر ، فالقرآن الكريم كلام الله ـ عز وجل ـ بلغة العرب ، ومدلولاته لاتكن إلا بها وبفهمها أما هذه الاستنباطات ، أو المناهج التفسيرية التي تشذ في استنطاق القرآن الكريم بما ليس فيه ، وبما لاتقبله اللغة العربية ، فهذه محاولة يائسة من هؤلاء لتحريف كتاب الله ، وإبعاده عن محتواه ، وهذا محال ، واستخدام السفسطة والتدليس في الجدال ، وبناء أحكام على مقدمات لاتدل على الحكم دليل البعد عن التفكير العقلي والعلمي المقبول ، الذي لا يقيم حقيقة ، ولا يحقق واقعًا .

أليس من البديهيات العقلية أن فهم أي نص في أي لغة ينبع من خلال اللغة ذاتها ؟ !، وكيف يكون ثبات مضمون النص مع تغيير مضمون النص ؟!.

وإن في الدعوة التي يدعوا بها هؤلاء إلى الاستفادة من التجربة البشرية في قراءة النص ، والتي لاتخلوا من محاولة تحميل النص عند تفسيره ما تتوصل إليه التجربة البشرية ، بُعداً عن المنهج العقلي .

ونقول لهم : إن النص القرآني نص إلهي ، ولم يكن نتاجًا بشريًا حتى يحمل تبعات التجربة البشرية المحدودة ، بل يتصف بعنصر الكمال ، لأنه ورد عن الله ، أي الكمال المطلق ، ولم تعبث به أيد بشرية .

أما إذا كان الأمر نابع من انكار وجود الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فهذا أمر آخر ،

ويحتاج إلى نقاش آخر .

ولأنه ثابت عقلياً وجود الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ ودون أية أدلة نقلية أو كونية فنجد هؤلاء وأمثالهم يتخبطون في يئس لمحاولة النيل من الإسلام ، ويجب أن نلاحظ أن تراجع التيار الإلحادي على مستوى العالم يرجع لهذه الحقيقة الثابتة .

ولنستعرض بعض ما قاله د/نصر حامد أبو زيد حتى نتبين حقيقة دعوته، وما يضمره في نفسه ضد الإسلام ، وحتى تتضح حقيقة الرجل :

[أ] طعونه في القرآن المجيد والسنّة المطهرة ، ومن ذلك [١] :

❁ ادعاؤه أن القرآن المجيد ليس وحياً من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وإنكاره سابقة وجوده في اللوح المحفوظ ، وزعمه أنه منتج ثقافي بيئي .

أي إنه من إفرازات الثقافة العربية لبيئة الرسول ـ ﷺ ـ ، ومن إنتاج المجتمع الذي نشأ فيه الرسول ـ ﷺ ـ ، فهو من آثار البيئة والمجتمع ، ومن ثم يؤكد في أكثر من موضع أن القرآن

صورة صادقة للمجتمع في عهد النبي ـ ﷺ ـ ، وإنما كان ذلك لأنه مستمد من البيئة ، وصادر عنها ، فلا وحي ولا قداسة .

يقول د/ نصر حامد أبو زيد :

" إن القول بأن النص منتج ثقافي يكون في هذه الحالة قضية بديهية لا تحتاج إلى إثبات ، لكن القول بأن النص منتج ثقافي يمثل بالنسبة إلى القرآن مرحلة التكوين والاكتمال ، وهي مرحلة صار النص بعدها منتجًا للثقافة . . إن الفارق بين المرحلتين في تاريخ النص هو الفارق بين استمداده من الثقافة وتعبيره عنها ، وبين إمداده للثقافة وتغييره لها " [٢] .

---

(١) تم الاستفادة هنا من موقع الإسلام اليوم . مقالات . شبكة الإنترنت .

(٢) مفهوم النص – دراسة في علوم القرآن ص٢٣ – ٢٤ .

ويقول : " إن النص في حقيقته وجوهره منتج ثقافي ، والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع ، والثقافة خلال فترة تزيد على عشرين عامًا ، وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية ومتفقًا عليها ، فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ، ويعكر من ثم إمكانية الفهم العلمي للنص " (١) .

وهذا من المؤلف يبين بشكل قاطع أنه يرى أن القرآن ليس وحيًا من عند الله سبحانه ، وإنما هو منتج ثقافي ، ومأخوذ عن ثقافة البيئة العربية التي كان فيها محمد ـ ﷺ ـ ، وأنه مرتبط بتلك الفترة فقط ، وقد قطع بذلك بوضوح شديد **في قوله :** " إن الفارق بين المرحلتين هو الفارق بين استمداده من الثقافة وتعبيره عنها " .

وفي قوله : " فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ، ويعكر من ثم إمكانية الفهم العلمي للنص " (٢) .

فهو إذن ليس مستمدًا من عند الله تعالى، ولا وحيًا نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ! ، وإنما وبوضوح شديد مستمد من الثقافة ومعبر عنها .

ولأن القرآن مستمد من الثقافة البيئية للنبي ـ ﷺ ـ ، فكذلك السُّنَّة من باب أولى ، وهو يحدد لنا المدة الزمنية التي استغرقها النص القرآني ، وكذلك نصوص السُّنَّة بأنها المدة التي عاشها رسول الله ـ ﷺ ـ نبيًا ، وإذا كان قد استعمل في النص السابق لفظتي "**منتج**،**ومستمد**" ، فإنه أضاف إليهما لفظة أكثر وضوحًا هي "**تشكلت**" ، إذ يقرر أن النص الديني ـ يقصد القرآن والسُّنَّة ـ قد تشكلا خلال فترة تزيد على العشرين عامًا ، ثم يزيد الأمر وضوحًا حين يصف القرآن

(١) مفهوم النص – دراسة في علوم القرآن . ص٢٧ الدار البيضاء :المركز الثقافي العربي .ط ٥ ٢٠٠٠م .تاليف الكتاب ١٩٩٠ م .

(٢) الإمام الشافعي وتاسيس الايديولوجية الوسطية . د/ نصر حامد ابو زيد ص ١١٠

والسُّنَّة بانهما "نصوص لغوية "، لا وحى، ولا تقديس، ولا إعجاز، ولا تشريع ، مجرد نصوص لغوية كما نصف قطعة شعرية أو نثرية .

وهكذا يقول د/ نصر حامد أبو زيد عن القرآن والسُّنَّة معًا :

هي نصوص لغوية تشكلت خلال فترة زادت على العشرين عامًا،وحين نقول: تشكلت ، فإننا نقصد وجودها المتعين في الواقع ، والثقافة بقطع النظر عن أي وجود سابق لها في العلم الإلهي أو اللوح المحفوظ.

دعوته إلى الخروج على نصوص القرآن والتحرر منها ، ورفض الخضوع لها ، والنتيجة التي يريد أن يصل إليها من خلال طعونه الكثيرة في القرآن والسُّنَّة ، أو في النص المقدس عندنا ، المجرد من كل قداسة عنده.

وما هذه النتيجة ؟ ، ويقول :

" وقد آن أوان المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرر ، لا من سلطة النصوص وحدها ، بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا ، علينا أن نقوم بهذا الآن وفورًا قبل أن يجرفنا الطوفان ! " .

هذه هي النتيجة التي يريد المؤلف أن يصل إليها ، وهذا هدفه - إذن - التحرر ، والتحرر م ؟ وممن ؟ .

إنه يريد التحرر من النص ، ومن القرآن والسُّنَّة ، كانهما قيدان يحولان دون تقدمه .

(ب) ادعاؤه عدم صلاحية الشرع الشريف - قرآنا وسُنَّة :

لوضع الحلول لكل القضايا والمشكلات التي تعرض للمسلمين حالاً ومستقبلاً، ودعوته إلى طرح الكتاب والسُّنَّة وتجاهلهما حين البحث عن حلول لمشاكلنا ، حيث يقول :

" ويبدأ الشافعي بتقرير مبدأ على درجة عالية من الخطورة فحواه: أن الكتاب ـ القرآن الكريم ـ يدل بطرق مختلفة على حلول لكل المشكلات والنوازل التي وقعت أو يمكن أن تقع في الحاضر ، أو في المستقبل على السواء .. وتكمن خطورة هذا المبدأ في أنه المبدأ الذي ساد تاريخنا العقلي والفكري ، وما زال يتردد حتى الآن في الخطاب الديني لكل اتجاهاته وتياراته وفصائله ، وهو المبدأ الذي حول العقل إلى عقل تابع يقتصر دوره على تأويل النص واشتقاق الدلالة منه " (١) .

فهو يحمل القرآن والمؤمنين به مسئولية تأخر المسلمين وتخلفهم عن غيرهم .. كأن الاستمساك بالإسلام والتزام القرآن والسُّنَّة مسئولان عن تخلفنا ، وليس العكس .

وهو يجحد قول الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

[النحل : ٨٩] .

وقوله سبحانه وتعالى :﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

(جـ) إنكارد/ نصر حامد أبو زيد عالمية الإسلام ، وعموميته ، وشموله لكل الخلق من إنس وجن ، وادعاؤه الباطل بأن الإسلام دين للعرب وحدهم ، فيقول نصر حامد أبو زيد في كتابه مفهوم النص :

" فالإسلام دين عربي ، بل هو أهم مكونات العروبة وأساسها الثقافي والحضاري " .

ويقول المؤلف في نفس الكتاب السابق :

" إن الفصل بين العروبة والإسلام ينطلق من مجموعة من الافتراضات الذهنية :

---

(١) الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية . ص ٢١ ، منتدى الكاشف .أسماء ومقالات . شبكة الإنترنت . ٢٠٠٥ م .

أولها عالمية الإسلام وشموليته،ودعوى أنه دين للناس وليس للعرب وحدهم ، ورغم أن لهذه الدعوى مفهوم مستقر في الثقافة ، فإن إنكار الأصل العربي للإسلام وتجاوزه للوثوب " إلى العالمية والشمولية مفهوم حديث نسبيًا " .

هذا كله رغم أن عالمية الإسلام وشموله لكل الأجناس بل للخلق جميعًا من إنس وجن ، من الحقائق الإيمانية المعلومة من الدين بالضرورة،وإنكارها مؤد بالضرورة إلى تكذيب للقرآن والسُّنَّة الصحيحة،تكذيب للقرآن القطعي من مثل:

- قوله تعالى :﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ .

[الفرقان : ١] .

- وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبا : ٢٨] .
- وقوله جل وعلا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

هل بعد هذا شك من أن كل هذه هي محاولات عدائية لهدم الإسلام ؟ ! .

لذا يجب أن ننتبه : إلى ما يدّعيه هو وأمثاله من تجديد للإسلام ، وغير ذلك ... وهم أحرار في اعتقادهم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، هذه هي عقيدتنا الإسلامية لا إكراه في الدين ، ولكن الذي نرفضه هذا الكذب ، وهذا التزوير ، وهذا التدليس .

ومن الأمور المستغربة أيضًا : من أن أمثال هؤلاء أنهم ينقدون المجتمع بعيوب في المجتمع ذاته ثم يحملونها على الإسلام ، فنجدهم يتسالون : لماذا لاتكون المرأة عاملة ؟ ، ولماذا لا تكون وزيرة ؟ ، ولماذا لا تكون مقاتلة ؟ .

إلى غير ذلك من التساؤلات . . . .

وهم بهذا الجهل ، أو الخلط يعملون على إحداث الخلل في المجتمع ، وكأن الإسلام يحرم هذا أو ذاك ! ، ونجدهم لايستطيعون إخفاء نواياهم الحقيقية ، وحقدهم تجاه الإسلام فيزداد هوسهم الفكري ، ونجد من يخرج منهم باجتهاد

جديد ليس على الإسلام فقط ، بل في تاريخ جميع الأديان ، فنجد من يرفع عقيرته متسائلا : لماذا لا تأخذ المرأة دور الإمامة العظمي في الإسلام ؟ لماذا لاتؤم المصلين في المسجد ؟! .

وبداية نقول لهم : مثل هذا الجهل لايرد عليه بل يسخر منه، فلقد اجتمعت الأمة كلها وتواترت على عدم جواز ذلك ، وهذه أمور محسومة في الإسلام ، الدين الذي ارتضاه المسلمون طواعية . وأود أن أوجه لنفوسهم المريضة كلمة .

بسبب أنني أعددت كتابًا ـ بعنوان . **«من سيحكم العالم ؟»** ـ عن أي الأنظمة البشرية ، أو الأديان السماوية مؤهل لحكم العالم ، وتحقيق أمنه ، وسلامته في عصر العولمة الشاملة ، فكانت فرصة للإطلاع على الأديان الكبرى في العالم، سواء كانت معتقدات وثنية "الكنفوشسية، والهندوسية، والبوذية "، أو دين سماوي " اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام " ولم أجد مطلقًا امرأة تتولى دور الإمامة في الدين ، أو في العبادة حتى في المعتقدات الوثنية ، ولم أعلم مطلقًا بإمراة كانت حاخامًا ، أو تولت البابوية في المسيحية ، ولم يناد أحد من رجال ، أو نساء هذه الأديان بهذا النداء الجديد ـ على حد علمي ـ رغم ما تعرضت له هذه الديانات من هجوم ، وإضعاف لها أكثر مما تعانيه .

والحقيقة إن دراسة الفكر التجديدي لأمثال هؤلاء تقودونا للسخرية من مثل هذا الفكر ! .

ونقول لهؤلاء كلمة علهم يعقلون :

إن الدين الإسلامي " نسيج رباني " مختلف عن كلام البشر وفكرهم وتصوراتهم ، ولايمكن أن يختلط به فكر بشري قط ، وثبت ذلك بمرور الزمان فرؤية البشر قاصرة ومحدودة زمانًا ومكانًا ؛ لذلك عندما اختلطت رؤية البشر بالدين المسيحي وباليهودية حدث ما حدث لهما من رفض ، وتشكيك وتعارض

مع العلم والتطور االبشري ، وثار العقل عليهما ، ونشأت الاتجاهات الفكرية المضادة لهما في الشرق والغرب ، أما مع الإسلام ، فالقرآن كلام الله الخالق العالم الذي لايحده الزمان ولا المكان ، وقد تعهد الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بحفظه وبيانه، وأنه صالح للبشر إلى قيام الساعة ، وبإظهاره على الدين كله ، ولو كره الكافرون ، ولو كره المشركون .

وقد أعلن الإسلام منذ اللحظة الأولى هذه الحقيقة ، وفرض على نفسه هذا التحدي ، فهل يستطيع أحد من البشر أن يفرض على فكره هذا التحدي الذي يمتد عبر الزمن ؟!.

وهل وجد مثل ذلك التحدي من بشر خلال تاريخ البشرية ؟!

أليس هذا دليل إعجاز وصدق للنبي ـ ﷺ ـ ، ودعوة إلى التعقل والتدبر لكافة البشر ؟ .

obeikandl.com

المبحث الثاني العصرانية والحداثة

هناك خلط متعمد وواضح بين " العصرانية ، والحداثة " من جهة ، وبين التجديد في الدين الاسلامي من جهة أخرى عند الغربيين ، وعند بعض المسلمين على حد سواء .

فالغرب ينظر إلى حركة التجديد الإسلامي المعاصرة ، والتى بدأت في الظهور منذ ما يقرب من أكثر من مائة عام ، ويصر على أن يربطها بالعصرانية والحداثة الغربية ، ويعمم الحكم عليها وعلى تبعيتها للغرب ، وكان التجديد في الإسلام أمر طاريء عليه ، وهذا جهل قبيح ، فالمسلمون منذ القرن الأول ،وهم منشغلون بفكر التجديد في الإسلام . وهناك مؤلفات تخصص المجددين ، وتذكر سبب اختيارهم ، وهو أمر من اكتمال الدين الإسلامي ، وشتان مابين التجديد في الإسلام ، وبين العصرانية أو الحداثة الغربية ،أو مايسميه بعض العرب ـ التجديد ـ فالفارق في الهدف ، والفارق في الأسلوب ، فتجديد الدين الإسلامي نابع من فكرة صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، وثبوتية الوحي بالتواتر الغير معهود ، والذي لانظير له في تاريخ البشرية ، وأن الإسلام محفوظ بحفظ الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث قال ـ عز وجل ـ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

[الحجر : ٩] .

وأن هذا كله من معاني الإعجاز الكثيرة في القرآن الكريم ، وأن الخلافات الحادثة بين المسلمين لاتمس الدين ، وأن فكرة الثبات التام على فكر العلماء حول الإسلام عبر الزمان لم يقل به أحد من العلماء المسلمين ، ولكن الثبات في الدين نفسه ثوابت الإسلام " قرآن وسُنَّة " وأن الإسلام يحمل بداخله كل عناصر

خلوده فهو وحي الخالق العالم بما خلق .

أما العصرانية والحداثة ـ أي التجديد ـ في الفكر الديني الغربي " التوراة والإنجيل " فهو ناشيء عن :

[١] أن هذه الشرائع كانت لأقوام مخصوصين ، ولفترة زمنية تنتهي بظهور شريعة أخرى ، وتنتهي جميعًا ببعثة محمد ـ ﷺ ـ ونشر تعاليم الإسلام .

[٢] ضياع الكثير من أصول هذه الشرائع .

[٣] ما دخل هذه الشرائع من تحريف من البشر بالزيادة وبالحذف ، وفرض سيطرة بشرية على الدين ، مما أدى إلى تناقضها مع الحقائق العلمية ، وعجزها وقصورها عن الاستمرار مع التطور البشري . فكانت النتيجة عزلها جانباً ، وتحديد مجالها ، وفقدانها للمصداقية عند الغالبية ، وبمعنى أشمل خروجها من الساحة ، وتركها المجال للفكر البشري ، بل واتهامها في أحيان كثيرة من طلابها وكهانها بعدم مصداقيتها ، ولما كانت العقيدة فطرة ، ولايستطيع الغالبية التخلص منها قام البعض بالتأويل والتفسير لتلك العقائد ، ثم حفظها داخل أماكنها ، وكل من يريد أو يشعر بالرغبة في التطهير الروحاني ؛ فليذهب ليأخذ ما يكفيه من جرعات .

فالعصرانية والحداثة في الغرب ليست كما يزعمون أنها " تجديد " ، أو إعادة النظر في الفكر الديني القديم ، أوتأويل تعاليم الدين لتتلائم مع معارف العصر وظروفه السائدة ، أوهي عملية مستمرة ، ومرتبطة بتطور العصر ، بل العصرانية أو الحداثة ـ التجديد الغربي ـ هي إخراج الدين من الممارسة الحياتية للإنسان ، والاتجاه للعلمانية بمعناها الشامل ـ اللادين ـ خطوة خطوة ؛ للأسباب التي أوضحناها سابقًا .

وهو المستحيل في الإسلام ، حيث أن الإسلام لايمكن انتزاعه من الحياة اليومية

للمسلم ، وإن أخطأ البعض أو تطفل من يدعي الإسلام ؛ ليعزل الإسلام عن الحياة اليومية للمسلم ، فسرعان ما ينكشف خطاه وينفضح أمره ، حيث أن الإسلام محكم ، وهو كالصفحة البيضاء تكشف عن أي تغيير يصيبها ، والإسلام نفسه يتحدث بهذه الثقة قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة : ٣] .

وقد تصدى العلماء المسلمون لهذه الثقافات الحداثية اللادينية منذ بواكير تسللها إلى بلادنا أوخر القرن الثامن عشر الميلادي في ركاب الغزوة الأوروبية للوطن العربي ، والعالم الإسلامي ، وكشفوا حقيقتها .

لقد رأى الجبرتي " ١١٦٧-١٢٣٧ هـ / ١٧٥٤ - ١٨٢٢ م " هذه الحداثة الوافدة مع الحملة الفرنسية على مصر " ١٩٧٨ : ١٨٠١ م "، رأها دهرية لا علاقة لها بالدين عندما أعلن بونابرت وحملته الفرنسية اعتناق الإسلام [١] .

وجاء عبد الله النديم " ١٢٦١ - ١٣١٣ هـ / ١٨٤٥- ١٨٩٦ م " وكشف الطابع الإلحادي للثقافات الحداثية التي جاءت بواسطة جماعات المثقفين ، التي احترفت التبشير بثقافة الحداثة الغربية ، وفي مقدمتهم مجلة " المقتطف "١٨٨٩ - ١٩٥٢ م " .

ويبدو من الضروري للقاريء المسلم أن نتناول باختصار غير مخل نشأة هذه العصرانية في الغرب .

أولاً : تاريخ العصرانية في الغرب :

نتيجة طبيعية لما دخل في المسيحية واليهودية من التحريف بالحذف ، أو بإضافة فكر وتصور بشري إلى أصول العقيدة الدينية ، فإن كل من اليهودية ،

---

(١) مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية . د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط١ ٢٠٠٢ م .

والمسيحية واجهتا أزمة ، ومأزقاً شديداً ؛ لتعارضها مع التطور البشري والعلمي في الحضارة الحديثة ، وحاولت كل من المسيحية واليهودية إيجاد حلول ملائمة لتلك المعضلة الكبيرة ، فنشأت حركة للتجديد – التأويل – عرفت في الفكر الديني الغربي باسم "العصرانية" **Moodernsism** ، وكلمة عصرانية هنا لا تعني مجرد الانتماء إلى هذا العصر ، ولكنها مصطلح خاص .

فما هي العصرانية في الدين ؟

إن العصرانية في الدين هي أي وجهة نظر في الدين مبنية على الاعتقاد بأن التقدم العلمي والثقافي المعاصر يستلزمان إعادة تأويل التعاليم الدينية التقليدية على ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية السائدة ، فالعصرانية هي الحركة التي سعت إلى تطويع مباديء الدين لقيم الحضارة الغربية ومفاهيمها ، واخضاعه لتصوراتها ووجهة نظرها في شؤون الحياة (١) .

ونعرض هنا لبعض الفرق الدينية التي تعد البداية الحقيقية لظهور العصرانية ، وما نتج عنها من فكر الحداثة عند بعض المسلمين المستغربين ، والتي تشير إلى الأصول الحقيقية لمذهب النقد التاريخي للقرآن الكريم .

وهذه الفرق الدينية في الغرب هي :

[أ] الفرق المتحررة في اليهودية :

وقد نشأت من التأثيرات المباشرة للحركة العلمية التي بعثها الزعيم اليهودي "مندلسون" ١٧٢٩ – ١٧٨٦ م . وقد أصبحت هذه الحركة فكراً على يد جيل من المفكرين في القرن التاسع عشر نذكر منهم على سبيل المثال :

❁ **اشتاينهاريم** : ١٨٠٦–١٨٧٤ م . وكان لايرى الأخذ بنصوص التوراة حرفياً بل يرى الاختيار من بين هذه النصوص ، ويرى أن هذا الاختيار متروك لكل

(١) مفهوم تجديد الدين . ص ٩٥ . بسطامي سعيد . دار الدعوة . ط ١ ١٩٨٤ م .

عصر حسب ظروفه لا وفق ما تمليه دواعي الايمان، وبهذا المبدأ وضع "اشتاينهاريم" الأساس النظري لإجراء أي تعديل ، أو مراجعة لتعاليم اليهود .

● **هولدهايم :** ١٨٠٦ - ١٨٦٠م . وقد أشاع مبدأ أن الشريعة الإلهية رغم أنها موحى بها من عند الله إلا أنها موقوتة بظروفها التي جاءت فيها ، وليست دائمة ، ومن كلماته المشهورة في أحد كتبه " إن التلمود يتحدث متأثرًا بفكر زمانه ، وهو محق في ذلك الزمان ، وأنا أتحدث منطلقًا من فكر متقدم في عصري هذا ، وبالنسبة لهذا العصر فأنا محق " ، وبهذا المبدأ أزاح " هولدهايم " التلمود من مكانته التشريعية المعهودة عند اليهود .

● **إبراهام جايجر:** ١٨١٠ - ١٨٧٤م . يرى أن مهمة الحركة التجديدية الحرة هي نفض الغبار عن جوهرها ، وإزالة الغبار والزوائد التي علقت بها عبر القرون ، وجوهر اليهودية في نظره ليست أشكالها ، أو مؤسساتها ولا حتى شريعتها ، ولكن جوهرها هو أخلاقها .

وهو يرى أن الوحي في اليهودية ينقل عن طريق البشر ، وهم معرضين للخطأ ، فإن نقلهم للوحي لايمكن أن يكون غير متأثر بشريعتهم ، ولهذا فإن كل التعاليم التي يزعم أنها مقدسة ، وأنها وحي إلهي خالص فهي في الحقيقة مزيج بين الإلهي والبشري .

وبما أن المعرفة البشرية تكتسب معرفة جديدة في كل جيل ، وهذه المعرفة نفسها هي كشف من الله ، ونوع من الوحي يسميه " الوحي المتطور " ، فإن التوراة والتلمود رغم أنهما وحي إلا أنهما لم يستوعبا نهائيًا ، وبصورة كاملة الحكمة الإلهية ، ومن هنا ينبغي إعادة النظر في التوراة والتلمود في ضوء كل معرفة جديدة (١) .

---

(١) مفهوم تجديد الدين . ص ٩٩ . بسطامي سعيد . دار الدعوة . ط ١ . ١٩٨٤ م .

[ب] التجديد العصراني للنصرانية :

ونشأت هذه الحركة من داخل الكنيسة، وازدهرت في نفس الوقت التي كانت تزدهر فيه تلك الحركة لتجديد اليهودية ، وسعت هذه الحركة لإحداث تغييرات جذرية في النصرانية ، ويقول هؤلاء الذين دعو أنفسهم بالمتدينين الأحرار ، ومنهم " جون راندل " في كتابه" تكوين العقل الحديث " ، دعو إلى تعديل العقائد في ضوء المعرفة السائدة المرة تلو المرة مادامت معرفة الإنسان تنمو ، وحياته الاجتماعية تتغير .

ونشأت هذه الحركة في القرنين التاسع عشر والعشرين لثلاث عوامل رئيسة هي :

[١] التقدم العلمي الهائل الذي أوجد تصوراً للكون يخالف التصور القديم الذي كان في صلب العقيدة المسيحية ، وأقره رجال الكنيسة .

[٢] استخدام منهج النقد التاريخي في نقد التوراة والإنجيل ، واخضاعهما لمقاييس البحث التي خضعت لها المخطوطات التاريخية القديمة ، وكشف مابها من تناقضات في روايتها ، والاختلافات في أسلوبها ، مما أثار الأسئلة حول قدسيتها ، وهل هي موحاة من الله أم من وضع البشر؟ ومن مؤلفوها ؟ ومتى ألفت ؟ .

[٣] اتساع الدراسات الدينية المقارنة ، ودراسة الأديان القديمة كاليونانية ، والمصرية ، وأديان الهند ، وأديان المجتمعات البدائية ، ونشأت نظريات وفلسفات عن أصل وتطور الدين ، ودعمت هذه الدراسات نقد" الكتاب المقدس " ، وزادت وجهة النظر الداعية إلى إجراء تعديلات على تعاليم الدين .

[ج] إعادة تفسير النصرانية :

إن الدعوة الرئيسية لحركة العصرانية هي المناداة بضرورة إعادة تفسير مفاهيم النصرانية التقليدية في ضوء ما يسمى معارف العصر ، والمفتاح الأساسي الذي استعمل لإعادة تفسير تعاليم النصرانية هو " مذهب الحلول " وهو أن الله ، والكون والإنسان شيء واحد .

فكل الكلمات الحكيمة ، والرسالات الرفيعة من أي رجل جاءت فهي وحي " فالفلاسفة والشعراء والأنبياء والقديسون" جميع هؤلاء كانوا مدارج للوحي الإلهي ،وذلك أن الإنسان نفسه ذو طبيعة إلهية .

ومن أهداف العصرانية رفض سلطة الكنيسة ، ولكن ليس إلغاؤها بل تحويلها إلى مؤسسة اجتماعية (١) .

ورغم ذلك فإن العصرانية الغربية لم تخل من بعض المحاسن ، ومنها :

ثانياً: محاسن العصرانية في الغرب :

ومن محاسن العصرانية في الغرب ، والتي أيدت ماجاء به الرسول ﷺ ، وماذكره القرآن الكريم عن اليهودية والمسيحية ، ولو أن هؤلاء عندهم إنصاف لأقروا جميعًا بالإسلام دينًا للعالمين .

[١] نقدها للتوراة والتلمود والإنجيل ، واعترافها بوجود تناقضات ، واختلافات وأخطاء ، ووصولها إلى أن هذه الكتب ليست بحال من الأحوال هي الكتب الموحاة ، وأن هناك خلط فيها بين الكلمات الموحاة ، وأقوال الأنبياء وسيرتهم ، وأقوال الأحبار والقساوسة ، ومزج كل ذلك بالآداب ، والمعارف

---

(١) مفهوم تجديد الدين . ص ١١١ . بسطامي سعيد . دار الدعوة . ط ١ . ١٩٨٤ م . وقد أطلق البابا " بيوس العاشر " في ١٩٠٧ في منشورين لعن اسم العصرانية . ودفعها بالكفر والإلحاد .

السائدة في العصور التي كتبت فيها [١] .

[٢] هدمها لبعض العقائد الباطلة مثل هدم عقيدة ألوهية عيسى ـ عليه السلام ـ ، وإيمانهم بأنه بشر كسائر البشر ، ومن ذلك الكتاب الذي صدر عام ١٩٧٧ م، في لندن بعنوان " **أسطورة تجسد الإله في المسيح** " ، تحرير البروفسير " جون هك " أستاذ علم اللاهوت بجامعة برمنجهام ، واشترك معه سبعة أساتذة لاهوت بريطانيون .

[٣] أنها كانت حربًا لحركة الصهيونية ، إذ أنها لم تكن تعترف بعقيدة العودة إلى فلسطين ، وإقامة دولة يهودية فيها ، وكان هذا من محاسن حركة " اليهودية المتحررة " في مباديء بتسبرج عام ١٨٩٥ م .

وعلينا أن نفرق بين الإسلام ، وبين اليهودية والمسيحية ، فإذا كانت الأسباب التي أدت إلى ظهور العصرانية مع اليهودية والمسيحية لها أسباب ودوافع حقيقية ويعلمها جميع المسلمين ، وقد أكد عليها الإسلام .

أما الدين الإسلامي فقد أعلن متحدياً منذ اللحظة الأولى عن عالميته وشموليته ، واتسع مكانيًا ليشمل جميع البشر في كافة زوايا الأرض مجتمعين أو متفرقين ، واتسع زمانيا ليظل صالحًا إلى قيام الساعة ، واتسع عمقًا ليشمل كل شؤون البشر . وهو يناسب من هذا المنطلق جميع العصور ، ويجاري الإنسان في جميع مراحل تطوره إلى يوم القيامة .

وقد تعهد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بحفظه وببيانه ، وقد انتقل بالتواتر الذي يستحيل معه التقول بشبهة التغير أو الحذف ، أوالإضافة حتى لحرف واحد فيه ، فقد صحت نسبته إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

والإسلام على مرِّ العصور لم يصطدم بالعقل أو العلم، بل يكشف بإعجازه

---

(١) تكوين العقل الحديث .جـ ٢ ص ٢٤٠ .جورج راندل .

الرباني عن جوانب من الإعجاز العلمي لتكون الدليل على صدقه ، وأنه من الخالق العالم سبحانه وتعالى .

ولكن ذل بعض المثقفين المسلمين والعرب ، ورأوا أن ينقلوا تلك الرؤية الغربية للمسيحية واليهودية إلى الدين الإسلامي ؛ وذلك نتيجة وقوعهم الكامل تحت تأثير الثقافة الغربية ، ومعطيات العلم الحديث ، وتدهور العرب والمسلمين ، وجهل غالبيتهم بالدين الإسلامي ، وإلى تقصير علماء الإسلام في مراحل سابقة عن مجاراة العصر لأسباب كثيرة ليس هذا مجالها .

والحقيقة الجلية أن الإسلام كدين لم يكن في مأزق، أو أزمة مع تطور البشرية ، ولكن المسلمون ومجتمعاتهم هي التي كانت تعاني نتيجة بُعدها عن القيام بأمر الدين ، وتجديد دينها .

وسنعرض هنا بعض النماذج لمثقفين عرب زلت أقدامهم ، ووقعوا فريسة تبعيتهم للثقافة الغربية :

ثالثاً : نماذج حداثية للقطيعة مع الموروث :

ظهر مصطلح " الحديث " كمفهوم مقابل " القديم " لأول مرة في أوروبا في القرن الرابع عشر الميلادي كما يقول " جان ماري دومیناك " ، وتبلور هذا المفهوم بفعل حركة الإصلاح الديني التي أطلقها " مارتن لوثر كنج " في بداية القرن السادس عشر ، وانبثاق عصر التنوير ، واشتعال الثورة الفرنسية ، فاتسع مفهوم الحداثة ـ حسب دومیناك ـ ، واستند إلى مبدأ " لاشيء مقدَّس بالنسبة لها ، لاشيء محرَّم " إنها لاتعترف باية محرمات " ، وراحت الحداثة تكتسح الموروثات في جميع حقول العلم ، والفلسفة ، والأدب ، والشعر ، والفنون ، والطقوس ، والتقاليد ، ونقلت إلى الناس عوالم جديدة ، وقد ظهر مصطلح الحداثة للمرة

الأولى في مجال الفن ، والشعر لدى الشاعرين الفرنسيين "دونرفال، وشارل بودلير" عام ١٨٥٠م ، وهي تعني انفتاح الشاعر والفنان على عصره ، وتجاوزه للأطر التقليدية التي تعيق تجليات الإبداع .

ومنذ بداية القرن العشرين استبدت بالفكر العربي نزعة للإقلاع عن الماضي إلى خارج أوروبا ، وتبنى الحداثة الأوروبية ، ومحاولة استنساخ نموذج للحداثة الأوروبية ، والعمل على تجسيدها في بلداننا [١] .

لقد بدأت منذ فترة تسري في واقعنا الفكري المعاصر حداثة القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام وأصوله وقواعده ، وانطلق نفر من المتغربين الذين قلدوا سلفهم الغربي متحدين ثوابت الأمة ، وخارجين على نسقها الإيماني بإقامة القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام .

وسنقدم بعض النصوص التي كتبت، وتشير إلى ذلك الموقف الفكري المتغرب:

[أ] هاشم صالح : " فمنذ الآن فصاعداً راح الأمل بمملكة الله ينزاح لكي يخلي المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته ، وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحي ، ويتلاشى أمام الطبيعة ، ولقد أصبح الإنسان وحده مقياس للإنسان .... وأصبح حكم الله خاضعًا لحكم الوعي البشري الذي يطلق الحكم الأخير باسم الحرية ، ويمكن للمعجم اللاهوتي القديم أن يستمر ، ولكن لم يعد يوهم أحداً ، فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعاني" [٢] .

وعلى درب القطيعة المعرفية الكبرى مع ثوابت الإسلام ، وأصوله سار نفر من الحداثيين العرب حذو النعل بالنعل فنجد :

---

(١) إشكالية الإسلام والحداثة . ص ٥ . عادل عبد المهدي . دار الهادي . بيروت ط ١ . ٢٠٠١ م .

(٢) مجلة الوحدة ـ الرباط ـ المغرب ـ عدد فبراير و مارس ١٩٩٢م ص ٢١ . هاشم صالح عن إميل بولا . الاقتباس عن كتاب مستقبلنا بين التجديد والحداثة . ص ٢٧ . د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط ١ ، ٢٠٠٣ م .

❁ د/ حسن حنفي يذهب على درب تأويل الإسلام تأويلاً يفرغ الدين من الدين . إنه ـ أي الله ـ هو الأرض .. والخبز .. والحرية .. والعدل .. والعتاد .. والعدة .. وصرخات الألم .. وصيحات الفرح فهو تعبير أدبي أكثر منه وصفًا للواقع ..... إلخ .

ويرفض مصطلحات مثل " الله ، والرسول، والدين ، والجنة ، والنار ، والثواب ، والعقاب " ، ويستمر في مبالغته في رفضه التوحيد ، والعقائد ، والوحي الإلهي إلى أن يقول .. والإلحاد هو التجديد " .... (١) .

❁ والشاعر الكبير كما يسمونه " أحمد عبد المعطي حجازي " . يدعو إلى احتقار اللغة العربية ، ويدعو للاحتفال بالاسكندر الأكبر ٣٥٦ – ٣٢٤ ق.م ، وتزيين ميادينا بتماثيله ، والمشاركة بالاحتلال بدلا من الاستقلال ، والدعوة إلى حب الصهاينة ، الذين يقتلون الأطفال والشيوخ .

وعندما سئل عن رأيه فيما ـ لو اصطدم المبدع ـ الشاعر ـ بما هو مقدَّس ؟ .

يقول : إن المقدَّس ليس كائنًا خارج الشعر ، أو خارج الإنسان .. المقدَّس هو مقدَّس لأننا نقدّسه (٢) .

(١) التراث والتجديد . د/ حسن حنفي . طبعة القاهرة ١٩٨٠ م .مكتبة الجديد .

(٢) الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي من حوار معه " أخبار اليوم " عدد ٣٧ سبتمبر ٢٠٠٠م . اتحاد كتاب مصر ـ القاهرة .

obeikandl.com

المبحث الرابع التنويـــر الأوروبـــي

إن فلسفة التنوير الغربي قد أقامت " قطيعة معرفية كبرى " مع الموروث المسيحي .. تلك حقيقة يعرفها الجميع وقد صرح بها الشجعان ، غير المرائين من مثقفينا المعاصرين ، والذين يدعون إلى التنوير الغربي في المجتمعات العربية والإسلامية .

ولقد جاء التنوير الأوروبي ، فلسفة رافضة لتجاوز الكنيسة حدودها التي رسمها لها الإنجيل ـ خلاص الروح ، ومملكة السماء ـ ، والنصرانية لا تمتلك شريعة للعمران البشري ، وجاء مدافعًا عن النزعة الدنيوية العلمانية للفلسفة الأوروبية ، وداعيًا إلى " العقل " الذي استبعدته الكنيسة ، " والرأي " الذي قهره اللاهوت ، ومناديًا بالتحرر من سلطة التقاليد الكنسية التي كانت سوقًا تجاريًا راجت فيه مفاسد القساوسة والبابوات ! ففي مواجهة " الفعل " الذي تمثل في تحالف الكنيسة ، والاقطاع كان " رد الفعل " التنويري الذي أعلن رفض السلطان الديني على الدنيا ، ولتدخل السماء في العمران الأرضي رافعًا شعاره القائل : " لا سلطان على العقل إلا العقل " .

وقد نشأ التنوير الأوروبي كرد فعل على الكهانة البابوية التي تجاوزت حدود الإنجيل والنصرانية ، وأدخلت أوروبا في عصور من الظلمة والرجعية [١] .

ولم يكن لأوروبا أن تنهض بغير الثورة على الكنيسة ، ومن ثم زاد شعار " العلمانية " **Secularism** " .

---

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير . ص ٢١، ٢٢ . د / محمد عمارة . دار الشروق . ط ٢ . ٢٠٠٢ م .

باعتبارها العاصم الوحيد دون عودة سلطان الكنيسة في القرون الوسطى ، وباعتباره باب الولوج إلى الحرية والتخلص من قيود الفكر ، والحجر على العقول [١] .

ولايوجد هنا تشابه مطلقًا بين النسق الفكري الإسلامي وتطوره الحضاري ، وبين هذا الذي حدث في أوروبا "الفعل الكنسي" منه ، "ورد الفعل التنويري" ، حتى يعتقد البعض بضرورة استدعاء هذا التنوير الأوروبي ليكون تنويرًا لنا نحن المسلمين! .

ولابد من فشل هذا الادعاء مهما استند إلى الكثير من دعاته ، أو مساندة قوى قادرة أو تظن أنها قادرة على ذلك . ولكن هذا لا يمنع من استخدامنا مصطلح "التنوير" ، ولكن يجب أن يتضح لدى الجميع مضامينه ومفاهيمه ، ويكون تنويرًا عربيًا إسلاميًا ، يتفق والمرجعية الحضارية الإسلامية ، والمتميزة عن المرجعية الغربية ، وذلك أن الإسلام جعل " النظر ، والتفكر ، والتدبر ، والتعقل ، والاعتبار " أولى الفرائض الإسلامية على الإنسان ، وهذا موقف مغاير تمامًا ، بل ومناقضًا لموقف النصرانية الغربية .

كما يجب أن نعي أن ثورة الغرب على الكنيسة والديانة المسيحية كان لابد أن تحدث لما وصلت إليه الحال من سلطة القهر ، وسيطرة الكنيسة على المجتمع ، وما قررته الكنيسة للبابا من حق غفران الذنوب في عام " ١٢١٥ م " ، ثم ما قررته بعد ذلك عام ١٨٦٩ م من عصمته من كل خطأ ، ومحاكم التفتيش ، والحجر على العقول ، والتعذيب ، والسجن ، والتقتيل ، مع الظلم الاقتصادي ، والاجتماعي ، والسياسي في ظل حكم الاقطاع . أضف إلى كل ذلك ضعف الاعتقاد في المسيحية ، وتضاربه مع العقل والعلم ، واختلاطه بالفكر ، والتصور

---

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة د.مستشار / علي جريشة . دار الوفاء . المنصورة .ط ٢ ١٩٨٨ م .

البشري القاصر والمحدود .

فهي في الحقيقة ثورة على فكر بشري قاصر على زمنه الذي وضع فيه ، وبيئته التي ظهر بها ، وقد تدخل في صلب العقيدة .

والمسيحية لم تكن رسالة عامة زمانيًا ولا مكانيًا بل انتهت تمامًا منذ قرون طويلة مع ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، وقد رفضها الإسلام ـ القرآن ـ صراحة ، وصرح بالتدخل البشري فيها بعد أن ترك الله حفظها لهؤلاء الذين حرفوها بالزيادة والنقصان ، والإضافة والشرح ، حتى أضحت صنيعة بشرية يستحيل أن تتسع زمنيًا ، و تستمر مع تطور البشر ، ويستحيل أن تتسع مكانيًا فتشمل كل تلك البلاد .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ .

[المائدة: ٤٤] .

فقد ترك الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر " الحفظ " هنا لرجال الدين ، سواءً اليهودي أو المسيحي ، وفرضه عليهم .

وقال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [آل عمران : ٧٨] .

فقد سبق القرآن الكريم والرسول ـ ﷺ ـ هؤلاء ـ الحداثين الغربيين ـ بقرون

طويلة في رفض اليهودية والمسيحية ؛ لما آلت إليه ، بل وفصّل سبب رفضهما ، لمادخل فيهما من تحريف بشري ، وأنه لايصلح للبشرية ، وأوضح ذلك بما لايدع مجالاً للشك بالنظر العقلي فيهما ؛ فأظهر ما بهما من فساد ، وأكد ضرورة التمسك بالدين الإسلامي وحده،والذي جاء به خاتم النَّبيِّين محمد ـ ﷺ ـ ، وأنه هو وحده الدين الحق ، وأن كل دين عداه فهو باطل لايقبله الله سبحانه وتعالى .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

وأن الإسلام هو الدين الخاتم لكل البشر إلى قيام الساعة ، وتعهد الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بحفظه ، وببيانه وهيمنته على الدين كله .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة : ٣٣] .

والقرآن الكريم عندما تحدّث عن العقيدة فلا سيطرة للرسول على قلوب المؤمنين المعتقدين لها والمطالبين بها ، فلا إكراه في الدين .

أما في الحديث عن الشريعة ، فلقد جاءت الآيات بوجوب إقامتها عليه وعلى المؤمنين ، فهي آيات قد أنزلت عليه ـ ﷺ ـ ليقيمها ، وليس فقط ليبلعها الأمر الذي يعني إيجاب إقامة "سلطة ـ دولة " .

وإلا فهل يتصور عاقل أن أحكام الشريعة الإسلامية ، وقوانينها في الحرب والسلم والزكاة ، وفي القصاص والحدود .... إلخ قد نزلت لمجرد البلاغ ، ولمجرد العلم ، مع تركها كالعقيدة لاختيارات القلوب التي لارقيب عليها ، ولا وكيل ولا حفيظ ! .

وإذا نظرنا إلى التنوير الغربي نجده قد تميَّز ببعض المفاهيم التنويرية العلمانية يأتي في مقدمتها :

[١] نزع القداسة عن المقدسات الدينية : ومنها ، الوحى،والكتب المقدسة ، واخضاعها في الدرس لمعايير دراسة النصوص البشرية الخالصة في بشريتها . فنجد " فولتير " قد سمَّى النصرانية " الكائن الوضيع " ، ودعا إلى فصل الدين عن الدولة ، وإبعاده عن الدولة ، ثم توالت الثورات على الكنيسة في ألمانيا ، وفرنسا ، ورفعت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م شعار " اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس " (١) .

[٢] النظر إلى الدين باعتباره شأنًا فرديًا خاصًا: قد يفيد في تقويم الأخلاق الفردية مع عزله عن كل ميادين العمران الاجتماعي ، سواءً في المعارف والعلوم ، أو في التطبيقات المدنية والثقافية لهذه المعارف ، وجعل المرجعية في شؤون العمران البشري للواقع ، والدنيا التي تدرك نواميسها ، وتعرف حقائقها ، وعلومها ببراهين العقل ، وتجارب الحواس وحدها .

[٣] النظرة التاريخية إلى الدين " أي اعتبار أن علاقته بالعلم ، وتوافقه معه مرحلة تجاوزها التاريخ ، ومن ثم رفض تعايش العلم والدين تعايش وحدة ، وتآزر التي " تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله " .

وتأسيسًا على هذه المقولات يدعو " التنويريون العلمانيون العرب " إلى تبنى نموذج الغرب في التقدم ، والنهضة ، والاحياء ... فطالما كانت مشكلات التخلف واحدة أو متشابهة ، فلا بد وأن تتوحد الحلول .. حلول النهضة بيننا ، وبين الغربيين . وقد انتقلت هذه الحركة التنويرية الغربية إلى عقول وأفهام كثيرين من مثقفينا ، وسنعرض على سبيل المثال لثلاثة من رواد الحركة التنويرية العلمانية

---

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة . د . مستشار / علي جريشة . دار الوفاء . المنصورة .ط ٢ ، ١٩٨٨ م .

الغربية في أمتنا العربية،وبعض من تلاميذهم لنكشف زيف دعوتهم ، وفساد آرائهم وأفكارهم ، وأن هذه الدعوة عداء صرف للإسلام ، ولاتحمل أي تنوير في الإسلام . وهم :

أولاً : الشيخ علي عبد الرازق (١٣٠٥/ ١٣٨٦هـ ـ ١٨٨٧-١٩٦٦ م) :

وكتابه " الإسلام وأصول الحكم "

وهو من شيوخ الأزهر ، وقد جسد التنوير الغربي العلماني غير المسبوق في فكر المسلمين وتاريخهم الطويل . وحقيقة اختلطت عليه الأمور ، أو تناولها دون معرفة ، وتجنى على تاريخ المسلمين ، وقد اعتذر عن هذه الأفكار أو أنه لم يعتذر سواء .

وقد قامت دعوته على أن الإسلام عبادة روحانية فقط ، ولاعلاقة له بإقامة الدولة ، أو تنظيمها ، أو التشريع لها . والحقيقة أن ما قال به عن الإسلام والخلافة الإسلامية وأن الدين الإسلامي روحانيًا فقط محض افتراء ،لم يقل به حتى أعداء الإسلام .

وكتابه هذا لايعد بحثًا علميًا هنا، فهو تغريب للأمة الإسلامية عن حضارتها، وتراثها ودينها .

ثانياً : سلامة موسى (١٣٠٥ / ١٣٧٧ هـ - ١٨٨٨- ١٩٥٨م) :

وكتابه " اليوم والغد "

وكل ما فعله دعوة إلى التفرنج ، والانسلاخ من الشرق والعروبة والإسلام بدعاوى كاذبة متناقضة، بها الكثير من السبّ والمغالطات ، وفيها عمالة حضارية للمستعمر، ونستطيع أن نوصفها بأنها عمالة سياسية تطفح بها كلماته في كتابه " اليوم والغد " ، بل أنه تطاول على كل شيء إسلامي وشرقي وعربي ، ولم تسلم

منه الديانة المسيحية ، فهو يكاد يعبد أسياده الغرب ، والإنجليز خاصة ، ولم يأت بأي تنوير بل نستطيع أن نقول أنه أتى بكل تزوير في كل ما تكلم به .

فكانت دعوته إلى دمج الأجانب في المصريين ، وليس إلى تحرير مصر منهم ، وإلى إزالة مخاوف هؤلاء الأجانب المحتلين " بفصل الدين عن الدولة ، وإلغاء التعليم الديني في المدارس " والدين هنا هو الإسلام .

ويدعو إلى هجر الثقافة العربية ، واللغة العربية ، واللجوء إلى العامية بدلاً من الفصحى ، وعقد مقالاً جعل عنوانه : " الرابطة الدينية وقاحة " !

وكتب يقول : إن الأجانب يحتقروننا بحق ، ونحن نكرههم بلا حق ... وقد كانت أكثر كراهيتنا لهم حسداً ، لأنهم نازعونا البقاء فغلبونا [١] . ونستطع أن نصف دوره بالعمالة الحضارية ، وإنكاره للدين عمومًا . وقد كان صريحًا في إعلان ذلك ، وأكثر جرأة ممن تبعوه في هذا الدرب . ولايمكن لأي عاقل أن يصف هذا الفكر – إن جاز تسميته فكرًا – بالتنوير مطلقًا .

ثالثاً : د/ طه حسين (١٣٠٦ / ١٣٩٣هـ - ١٨٨٩-١٩٧٣ م) .

وكتابه " الشعر الجاهلي "، وكتابه " مستقبل الثقافة في مصر"

وهو لم يكن إلا عميلاً للغرب ، وعدواً للإسلام حتى في مرحلته الأولى التي تميزت بالانبهار الشديد بالنموذج الغربي في النهضة والتحديث ، وبالرفض للنموذج الإسلامي ، وأنه لم يتراجع بعد مرحلة الانبهار هذه عن الإلحادات التي خاضها .

وتظهر أفكاره في مرحلة الإنبهار في كتابه " الشعر الجاهلي " الذي أثار عام ١٩٢٦م أولى معاركه الفكرية ، فقد نزع طه حسين القدسية عن القرآن الكريم ،

---

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير . د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط٢ . ٢٠٠٢ م .

وتعامل معه كما يتعامل الباحث الملتزم بالشك الديكارتي في نص بشري ، متناسيًا قدسية القرآن الكريم ، ومتجاوزًا طبيعة البحث العلمي .

والعمل الثاني الذي تبنى فيه د/ طه حسين مقولات التنوير الغربي العلماني هو: كتابه " مستقبل الثقافة في مصر" ، وكتبه ١٩٣٦م ، ونشره ١٩٣٨ م .

وقد غير آراءه حول هذا الكتاب عندما أعلن ذلك في مارس ١٩٧١ م في صحيفة الأهرام .

وفي سنة ١٩٥٣م عقب ثورة يوليو اختير طه حسين عضواً بلجنة وضع الدستور المصري الجديد ليحل محل دستور"١٩٢٣م" ، وفي مداولات هذه اللجنة قال طه حسين كلامًا يدعو إلى الالتزام في الدستور الجديد بكل الإسلام وإلى إلزام المشرع للقوانين بألا يخرج قانون من القوانين عن أحكام القرآن الكريم [١] .

ثم نجد ـ بعد هذا ـ تلامذة التنوير الغربي العلماني يحاولون التزييف، ونجدهم يقولون بأنه تجديد ، ويربطونه بالتجديد في الإسلام ، وشتان ما بينهما ،ويقولون بأنه عربي لا غربي، وهي دعوى كاذبة تكشفها بل تفضحها أفكارهم التجديدية كما يزعمون ؛ فهم يجعلون العقل سيد الأحكام " يؤلهون العقل " .

فنجد مراد وهبه رافعاً "شعار التنوير" يدعو إلى الانتقال من الأسطورة ـ أي الدين – إلى العقل " لاسلطان على العقل إلا العقل " ، أي لاسلطان لدين ، ولا وحي .. ولا نقل .. ولا وجدان .

✿ **ود/ جابر عصفور يقول:** إن العقل والتجريب ، لاالنقل والاتباع هما أساس المعرفة ، فأساس المعرفة العقل والتجريب .. وعلى التنويريين الكفر بالنقل أي ـ القرآن والسُّنَّة ـ ، والثقافة المستندة إليهما ، والتراث المؤسس عليهما ، والحضارة المصطبغة بصبغتهما . وهو حر فيما يعتقد ، ولكن لايجوز له استخدام التزوير

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير . ص ١٦٩ . د/ محمد عمارة . دار الشروق ط٢ . ٢٠٠٢ م .

لإثبات الحقائق .

فكيف يكون التنوير عربيًا إسلاميًا ؟! ، وهويدعو إلى إسقاط الهوية العربية الإسلامية ! .

◘ **ونرى د/ حسن حنفي :** في مشروعه الضخم " التراث والتجديد ١٩٨٠م يحاول أنسنة الدين ، وتفريغه من محتواه ؛ وذلك بإلغاء ثوابته ومقدساته من " الله إلى النبوة إلى الرسالة إلى الوحى إلى الغيب" إلغاء كل ذلك بإعطائه مضامين، ومفاهيم إنسانية أرضية ... أي إلغاء الغيب كمصدر للمعرفة ، وقصرها على عالم الشهادة . وقصر سبل المعرفة على العقل والتجريب وحدهما أي إلغاء كل ما يجاوز الحس والمشاهدة ، وتأويل وتفسير كل ماله علاقة بالدين ، والغيب ، والألوهية ، والنبوة ، والرسالة ، والوحي على هذا النحو الذي " يؤنسنه " ، ويجعله إفرازًا بشريًا .

فنحن إذًا بإزاء استعارة فلسفية لفلسفة التنوير الغربي العلماني ، ويريد د/ حسن حنفي أن يتعامل بها مع الإسلام كما يتعامل التنويريون الغربيون مع النصرانية الأوروبية إبان النهضة الأوروبية الحديثة ، ويجب ألا ننخدع بادعاء بعض هؤلاء بالتجديد ، أو تصديهم في بعض المواقف للدفاع عن القضايا العربية أو حتى الدينية بما يوهم أنهم يدافعون عن الإسلام ؛ فحقيقة فكرهم وأهدافهم هي هدم الإسلام .

ولابد أن يكون واضحا أنه عندما سقطت الماركسية ، وتحولت دولها إلى الليبرالية الغربية ومعسكرها الشمالي حدث نفس التحول لرموز المثقفين والمفكرين الماركسيين العرب ، وأصبحوا أفصح ألسنة في مواجهة المشروع الإسلامي من مؤسسات الإعلام والثقافة ، وفي خضم هذه الأحداث بعثوا شعار " التنوير" من مرقده القديم ، ودعوا إليه في مواجهة المشروع الإسلامي الذي

وصفوه "بالفكر الظلامي " .

وفي سياق التنوير لمواجهة التيار الإسلامي نجد على سبيل المثال :

[١] انعقاد معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٩٠م تحت شعار " مائة عام من التنوير " .

[٢] احتفال المثقفين العلمانيين بمئوية مجلة "الهلال"القاهرية ١٩٩٢ م تحت ذات الشعار"مائة عام من التنوير" .

[٣] الحملة الفكرية التي نهضت بها وزارة الثقافة المصرية ١٩٩٣م ، والتي أصدرت فيها قرابة الخمسين كتابًا لتحمل أغلفتها كلمتي " المواجهة والتنوير " .

وبعد هذا العرض المبسط لهؤلاء وأمثالهم يجب أن ننتبه ، ونحدد العلاقة بين مصطلح :

التنوير الموجود في تراثنا الإسلامي ، والتنوير في التراث الغربي .

وذلك لاختلاف المفاهيم التي يسببها استخدام " المصطلح الواحد " بمفاهيم وخلفيات ومضامين مختلفة ، بل ومتباينة ، وأحيانًا متناقضة ؛ حتى نعلم الفرق بينهما ، وإلى أي تنويرٍ نحن مدعوّون ؟! .

وحتى نكشف أي تزوير أو تدليس يُراد به ديننا الحنيف .

المبحث الخامس مركسة الإسلام

لم تنحسر محاولات مركسة الإسلام بسقوط الماركسية في الإتحاد السوفيتي ، فلقد انسحب الكثير من الماركسيين العرب بعد سقوط مشروعهم السياسي ، والاقتصادي من تحت مظلة الماركسية "الشمولية" ، واتخذوا مواقعهم تحت مظلة الليبرالية (١) ، التي كانوا يكيلون لها الاتهامات ؛ وذلك لأن الذي يجمعهم سويًا هو جامع العداء للإسلام .

ونجد في واقعنا العربي المعاصر العديد من المشروعات لمركسة الإسلام ، فهي تحاول بإسلوب فكري قسري أن تصب الدين في قوالب الإلحاد ، وتدفن الروح في قبر المادة .

ومن هذه المشروعات على سبيل المثال :

- مشروع د/ طيب تزيني عن التراث ، ومحاولة اختزاله في الثورة .
- مشروع حسين مروة .. عن النزعة المادية في الفلسفة الإسلامية .
- مشروع محمود إسماعيل لاختزال الإسلام في البعد الاجتماعي الثوري .. سوسيولوجيا الإسلام ..

ومثال على ذلك: كتاب غير مشهور في دوائر الإعلام وهو كتاب " القرآن وعلومه في مصر " تأليف أ.د/ عبد الله خورشيد البري ، وهو رسالة دكتوراة في

---

(١) يقول " إميل بولا " الباحث الفرنسي ، واحد اكبر الباحثين المعاصرين في " علم الاجتماع الديني " : إن الأيديولوجيا الأم التي كشفها عصر التنوير للعالم ، والتي تضاد المسيحية عن طريق الخروج منه تحمل اسمًا رمزيًا كان مثقلاً بالمعنى ومشحونًا بدلالة الواقع في القرن الماضي إنه " الليبرالية " . الإسلام بين التزوير والتنوير . د/ محمد عمارة . دار الشروق .ط٢ . ٢٠٠٢ م .

كلية الآداب جامعة القاهرة ـ قسم اللغة العربية ـ ، وهو يركز على الإسرائيليات التي تشكك في النص القرآني ، وهي روايات آحاد ، ومعلولة أو شاذة .. ولن نقف عندها هنا ...

والمركسة التي في هذا الكتاب أنها اختزلت الإسلام في الثورة ،فهو مجرد ثورة على سبيل الحصر ، ولا أثر فيه للدين ، ولا لصدق الوحي الإلهي ، ولا للمعجزة التي تحدى بها قومه والعالمين ، وهو يقدم الرسول ـ ﷺ ـ كمصلح اجتماعي فقط .

أولاً : مشكلة الماركسيين مع الإسلام :

ومشكلة هؤلاء الحقيقية أنهم مصرّون على الانطلاق من قاعدة راسخة في أذهانهم وأفهامهم ، ويحكمون بها فكرهم هي : " أن الإسلام والقرآن الكريم إنتاج بشري " ، وهذا نابع من إنكارهم بوجود الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ حتى لو أخفو ذلك – ثم هم يتشعبون في فكرهم كل بطريقته لإثبات اعتقادهم من خلال إثبات بشرية الدين الإسلامي والقرآن الكريم ، وهم لايتركون سبيلاً إلى ذلك إلا ويطرقونه في محاولة يائسة لوضع أسس ، أو قواعد لدعواهم .

والنقطة الفاصلة في الحوار معهم هي أن الدين الإسلامي لم يكن منتجًا بشريًا بحال من الأحوال ، وهو من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ " تصوير إلهي كامل معجز " ؛ ولذلك قام على التحدي المستمر ، والصلاحية المستمرة للجميع ، وقد ثبت ذلك بمرور وتعاقب العصور ، وهذا ما لايمكن توفره في الفكر البشري .

ونتوجه إلى عقول هؤلاء ونسألهم:

إذا كان الإسلام والثقافة الإسلامية القرآنية يمكن ـ كما تدعون ـ تحليلها علميًا واجتماعيًا بحسب كونها منتج بشري مادي ، فليبرر لنا هؤلاء بهذا

التحليل الاجتماعي والعلمي عدم استطاعة التطور العلمي الحديث ، وحتى يومنا هذا على الإتيان أو الإنتاج لثقافة ترتقي إلى مستوى الثقافة القرآنية ؟ ، والمؤكد أن العلم والإنسان والحياة والاجتماع .... وصل إلى مرحلة من النضج الفكري ، والعلمي ، والجمالي ، وإلى مستوى متقدم كثيراً على مستويات المجتمعات العربية القديمة إبان ظهور الإسلام ، والثقافة القرآنية .

فهل بإمكان العصر الحديث ـ بكل تقدمه وتطوره وبكل بناه الاجتماعية ـ أن ينتج ثقافة تصل إلى مستوى الرقي الفكري ، والروحي ، والقانوني ، والاجتماعي للقرآن الكريم ؟! .

ولماذا لم يتساءل هؤلاء المفكرين والفلاسفة ..

أن لو كانت الظاهرة القرآنية منتجاً بشرياً لأي مرحلة تاريخية فهل كانت لتجرؤ على طرح صيغتها باسم التحدي لكل عصر ، وزمان ، ومكان ، وإنسان ؟! .

وأما محاولة طرح مبرر "الاستثنائية" ـ الذي قال به د. طيب تزيني [١] ـ لشخصية الرسول ـ ﷺ ـ للتملص من استحقاقات الاعتراف بإعجازية القرآن الكريم، وللإدعاء ببشريته، فهذا المبرر لم يكن أبداً تحليلاً علمياً أو اجتماعياً يفسر أو يشرح لنا هذه الاشكالية التي كسرت قانون "الانعكاس الاجتماعي" [٢]، الذي يؤمنون به ، والذي يظهر اختلافاً كبيراً بين واقع المجتمع العربي البدوي الساذج ، وبين ثقافة القرآن الكريم الراقية .

---

(١) د/ طيب تزيني. صاحب نظرية " الاستثنائية " حول المبررات التي دفعته إلى تبني استثنائية في دراسته "الظاهرة القانونية " .كتاب / مقدمات أولية جـ ٤ الباب الثالث ص ٣٨٥ . طبعة اولى . د/ طيب تزيني .

(٢) فهؤلاء الماركسيون يؤكدون حتمية كون مصادر المعرفة الإنسانية انعكاساً للوجود الاجتماعي فحسب ، فهي مصادر مادية بحتة .

عن مقال على الإنترنت ١٤- شباط ٢٠٠٥ ـ حميد الشاعر . من هدي القرآن ... الكلمة ... اقرأ؟ بنية الاجتماع وثقافته).

ويحق لنا أن نسأل د/ طيب تزيني ؛ عن تلك الاستثنائية المادية الأعجوبة التي هيئت من محمد ـ ﷺ ـ أن يكون محركًا ، وملتقطًا لفصل تاريخي غير وجه الكرة الإنسانية بالتمام .

فهل هذه الاستثنائية العلمية والحتمية هي استثنائية بشرية بالإمكان تكرار نموذجها الإنساني ، باعتبار أنها فعل إنساني محتمل الوجود علميًا ؟! ، أم أن هذه الاستثنائية من الاستثنائيات الخارجة عن المقدرة البشرية في الماضي والحاضر والمستقبل ؟!.

فإذا كانت من الاستثنائيات الخارجة عن المقدرة البشرية ، واللامتكررة فلا إشكال يذكر بيننا وبين د/ تزيني ، أما إن كان المقصود الاستثناء البشري المدي المحتمل وجوده ؛ فليدلنا الأستاذ الفيلسوف « تزيني » عن ذلك المحتمل البشري ، والذي بإمكانه أن يتمثل ما قام به ، وما قدمه رسول الله ـ ﷺ ـ ، فليرشدنا العقل الحتمي العلمي إلى الشخصية الإنسانية التي تكررت بعد محمد ـ ﷺ ـ ؛ لنطالبها بأن تأتي بما أتى به محمد ـ ﷺ ـ من فكر ، وثقافة ، وعلم قرآني ، لنسقط هذا الكيان المسمى إعجازيا " بالقرآن الكريم " ، ولنتنور من ثم إلى كون هذا المنتج الفكري ، والعلمي والثقافي القرآني الذي جاء به محمد ـ ﷺ ـ بالإمكان طرح مثله ، واستبداله بغيره أعمق منه فكريًا ، ونفسيًا ، واجتماعيًا ، وكونيًا ، وفلسفيًا ، واقتصاديًا .... إلخ من إنسان استثنائي آخر !.

وهل يتمكن دعاة الاستثنائية المادية في شخصية الرسول ـ ﷺ ـ من الإتيان بإنسان أمي لايقرأ ولا يكتب، في مثل المجتمع العربي الجاهلي ؛ ليطرح ثقافة ، وعلمًا ، وفكرًا ، خلق أمة ، وبنى حضارة ، وغير مجرى التاريخ ..... إلخ ؟!.

وكيف ، ولماذا يلجأ العقل المادي الحتمي إلى هذه الاستثنائية ، وهي تتعارض مع فكره ودعوته ؟!.

والحقيقة أن هذه الاستثنائية المادية هنا هي كالأسطورة البدائية للإنسان ، التي توحي بكل مالم يستطع العقل والعلم الإنساني تفسيره في السابق إلى رميه على قوى اللامرئي " الغيب " ، إلا أن الاستثنائي المادي بدلاً من الغيبي ؛ لتكون المعادلة قائمة على : محمد ﷺ الاستثنائي ! العامل والمحرك للحظة الاستثنائية ! القادر على الإتيان بالقرآن الاستثنائي ! والمنتج لكل ما هو استثنائي .... إلخ .

إن الإشكالية الحقيقية للعقل المادي الماركسي أنه لايريد إدراك حقيقة وجود الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ ، ولعجزه أمام هذا الطرح – وجود خالق – والثابت بالمنطق العقلي البحت ؛ يلجأ هؤلاء إلى الخلط والكذب و . . .إلخ .

ثانياً : مشروع سيد القمني :

ومن أبرز نماذجهم لمركسة الإسلا م "مشروع سيد القمني " [١] . والذي قال عنه التسويق العلماني : " إنه واحد من العلماء الصارمين الذين يعتمدون العلم لا الأساطير" ، وهو نفسه يؤكد ذلك حين يقول عن نفسه إنه في مشروعه الفكري عاين التراث " حيًّا بلحمه ، وشحمه ، ودمه ، "وقدمه " كما كان حقًا " ، وعلى هذا فقد مارس « القمني » حقه الكامل في السؤال ، وفي البحث ، وفي الإجابة في كتبه ، ومقالاته التي بعضها حول المناطق الحساسة في التاريخ والعقيدة ، وبعضها الآخر يقتحم بلا حذر وبتهور هذه المناطق تحت ضغوط فكره المادي الماركسي ، فنجده يضطر ـ في أغلب كتاباته ـ إلى التضحية بالمعلوم بالضرورة في كتب مناهج البحث العلمي ، وإلى اعتماد الأساطير ، " سواء التراثية ، أو حتى الاستشراقية بحجة كما قال وأكد : إن مهمتنا ـ مهمته ـ أبدًا ليست تدقيق معلومة يعطيها لنا علماء " وأن " المعلومات سواء كانت خطأ أم صوابًا فهي ذلك المعطى الجاهز لنا من أهل التاريخ " .

(١) سيد القمني / دكتوراة في تاريخ علم الاجتماع الديني .

ونلقي بعض الضوء على المشروع الفكري للدكتور القمني ؛ وكيف أعاد إنتاج الإسلام ماركسيًا ؛ ليلائم اتجاهاته الماركسية الثورية ، ولنكتشف تعمد التزوير والكذب على التاريخ ، ليظل داخل قوقعة الماركسية التي حبس فيها عقله ، وفكره وحتى تخيله .

(أ) مشروعه المادي :

وللأهمية القصوى نبدأ بإثبات تعريف القمني لنفسه بقوله " أنا مادي " ، والمادي في " ألف ـ باء " ماركسية تتلخص في أن المادي يقول بـ : " أولية المادة على الله في الوجود " ؛ وبالتالي فهو حسب " المادية الدياليكتيكية " لايؤمن بوجود موضوعي حقيقي لله . ومن ثم ينكر ويرفض وجود علاقة ـ سواء في شكل ديني أو روحي ـ بين إله غير موجود أصلاً ـ في عقيدته ـ ، وبين إنسان هو الخالق الفعلي لله . وحسب ـ الرؤية المادية التاريخية ـ فالمادي لابد أن يبحث ـ في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للإنسان ـ عن وجود فكرة الله والدين .

وهذا ما حاول « القمني » الالتزام به في مشروعه الفكري الذي رفض فيه ما أسماه بـ " الرؤى الأصولية " التي تقول : أن الإسلام " مفارق سماوي " ؛ لتناقض هذا القول " الأصولي " ، أو " المثالي " مع " مادية " سيد القمني التي تقول : بـ " أنه لا شئ إطلاقاً يبدأ من فضاء دون قواعد مؤسسات ماضوية يقوم عليها ويتجادل معها ، بل ويفرز منها حتى لو كان دينًا " .

والذي حاول فيه " من خلال دراسته للأديان عمومًا ، وللإسلام خصوصا " إثبات أن فكرة التوحيد لاتأتي من فراغ ، ولا تقفز فجأة دون بنية تحتية تسمح بها ؛ لأن ذلك القفز الفجائي يخالف منطق التطور ، وشروطه المجتمعية ، والاقتصادية ، والسياسية وذلك حسبما تعلم " في فلسفة التاريخ ، وقوانين الحراك الاجتماعي " .

(ب) تفسير ماركسي :

ولاعتقاد القمني ـ الماركسي المادي ـ أن الإسلام مجرد " إفراز " أفرزته " القواعد الماضوية " "الجاهلية " ؛ وأنه ـ حسب الرؤية المادية ـ لا يمكن تفسير الظهور التاريخي للإسلام " كبناء فوقي " من الله وفقًا لوعي الإسلام المثبت في قرآنه ، بل ينبغي تفسيره بتناقضات الحياة المادية " بناء تحتي " ؛ لذلك رجع « القمني » في دراساته عشرات الأعوام في عمق الحقبة الجاهلية ؛ لينقب في وقائعها عن جذور جاهلية لمثلث " الرسول ـ الرسالة ـ الدولة " .

وليقين القمني أن اللحظة التطورية " الاقتصادية ـ الاجتماعية " في الزمن الجاهلي لحظة بدائية ، أو بدوية لن تسعفه وقائعها في إيجاد جذور جاهلية لمثلث الإسلام " الرسول ـ الرسالة ـ الدولة " ، خصوصًا أن هذه الوقائع في رأيه قد تم "أسطرتها" [١] بزيادة هائلة ، ومكثفة "عند تدوين التراث الإسلامي في سجلات الإخباريين " ؛ لذلك لم يبدأ القمني دراسته للقواعد الماضوية بنقد الوقائع المدونة في سجلات الإخباريين لتخليصها من النسبة الأسطورية " الهائلة والمكثفة " في معلوماتها ، وإنما ـ وعن قصد ـ تخلى عن عقله النقدي ـ كمتخصص في التاريخ ـ ، وتجنب الوقائع العقلانية في السجلات التراثية ؛ وذلك ليوسع رقعة "الأسطرة " كضرورة أيديولوجية ، وليست علمية تمكنه من تفكيك المثلث الإسلامي ، وإعادة ترتيبه ليكون الإسلام "الرسالة "مجرد " إفراز " أرضي بشري ، وليس وحيًا سماويًا .

تحت ضغط هذه الغاية، اعتمد الدكتور « القمني » ما أسماه بـ " المعطى الجاهز له من أهل التاريخ " عن الصراع الهاشمي الأموي قبل البعثة الإسلامية .

---

(١) الأسطرة : أي الذي يحوي الأساطير ، أي غير عقلاني ، وهو عكس " اللاَّمؤسطر " أي الذي ينزع الأسطورة عن وجه الأشياء ، وبالتالي فهو يعني العقلانية .

ورغم أن سبب هذا الصراع كما سجله الطبري " مرجع القمني " أن هاشمًا بن عبد مناف أطعم قومه الثريد، فحسده أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ـ وكان ذا مال ـ فتكلف أن يصنع صنيع هاشم ، فعجز عنه ؛ فشمت به ناس من قريش ؛ فغضب " أمية " ونال من هاشم " ورغم أن أغلب الكتب التراثية التي روت واقعة الصراع قدمت معلومات تشكك في حقيقتها، منها :

أن هاشمًا هو توأم عبد شمس "،وكان لهاشم يوم مات خمس وعشرون سنة ، أي وكان لعبد شمس يوم مات " توأمه " خمس وعشرون سنة ، وهي معلومة كما نرى تثير تساؤلاً :

❁ كم كان عمر أمية يوم مات أخو أبيه وتوأمه ؟ (خمس سنوات أو حتى عشرة).

بل ورغم أن ابن اسحاق ، وابن سيد الناس ، وابن كثير سكتوا عن مجرد الإشارة إلى هذا الصراع في مؤلفاتهم التي تصنف ككتب أصول ، فقد تجاهل القمني كل ماسبق حتى لايشكك في تاريخية هذا الصراع الذي انتقاه ليكون " القاعدة الماضوية لتأسيس " الدين والرسول والدولة " .

(ج) إعادة تأسيس الإسلام :

وبدون الدخول في تفاصيل كثيرة ، أو تعليق على عشرات الأخطاء الطلابية التي ازدحمت بها معالجة القمني لمراحل وتطور هذا الصراع ، فالذي يجب رصده أن :" الحزب الهاشمي " ـ حسب دعواه ـ في بداية تأسيسه لم يكن فاعلاً بشكل جذري ؛ لأنه – في أهدافه (سواء زمن قيادة هاشم ، أو في زمن قيادة شقيقه المطلب) ـ كان ملتزما بخط " قصي " ـ الجد ـ ، ويكاد يدور في دائرته ؛ لذلك كان الصراع يُحل سلميًا حرصًا على المصالح التجارية ، وما سبق أن حققه عمه " المطلب " الذي رحل تاركا استكمال المهمة الجليلة . فقد نقل الصراع مع

أبناء عمومته ـ الحزب الأموي ـ من المناوشات المحدودة إلى المواجهة الشاملة ، وبتعبير القمني " من التكتيك إلى الأيديولوجيا " .

ولأن عبد المطلب ـ كما يقول « القمني » ـ تربى في يثرب " حيث التاريخ الديني يتواتر هنا في مقدسات اليهود " ، وحيث كانت حكايات اليهود " عن مغامرات أنبيائهم القدامى ، وعن دولتهم الغابرة التي أنشأها النبي داوود " ؛ فقد أتى من يثرب إلى مكة بالمشروع الإسرائيلي (اليهودي) بمثلثه (العرقي ـ الديني ـ السياسي) ؛ ليهتدي به في مهمته الجليلة بـ " وضع أيديولوجيا متكاملة لتحقيق أهداف حزبه الهاشمي " وهي :

[١] أرجع النسب العربي من أسلاف القبائل المتفرقة إلى التوحد في " سلسلة النسب الإسرائيلية " ، وأعلن أن العرب جميعًا ، وقريش خصوصًا يعودون بجذورهم إلى نسب واحد ، فهم برغم تحزبهم وتفرقهم أبناء لإسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ .

[٢] بعد " قراءة " للواقع المتشرذم ، تمكن عبد المطلب من " تحديد الداء (المكي ـ العربي) ووصف الدواء " . والداء فرقة قبلية عشائرية ، والأسباب تعدد الأرباب ، وتماثيل الشفعاء .

" ومن هنا انطلق عبد المطلب يضع أسس فهم جديد للاعتقاد " ، و" انطلق يؤسس دينًا جديدًا يجمع القلوب عند إله واحد " .

[٣] وبإزالته أسباب " الفرقة القبلية " لم يكتف عبد المطلب ـ في رأي القمني ـ بتبشير قومه بـ " إمكان قيام وحدة سياسية بين عرب الجزيرة تكون نواتها ومركزها مكة تحديدًا " ، لكنه عمل أيضًا على ملء المساحة الفاصلة بين نقطة الوسيلة " الدين " ، ونقطة الغاية " الدولة " بحركة جماهيرية تكون بمثابة الجناح

الديني للحزب الهاشمي ، وهو ما حدث فعلاً في رأي القمني " فقد آتت مخططات عبد المطلب ثمارها ، واتبعه كثيرون " وكونوا حركة الحنفاء " حتى شكلوا تيّارا قويًا ، خاصةً قبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة " ، وكان عبد المطلب هو " أستاذ الحنيفية الأول " ، " والرجل الأول " في هذا التيار .

[٤] ولأن المشروع الإسرائيلي هو المرجع ، ودولته – التي أنشأها النبي والملك داوود – هي النموذج ، ولأن عبد المطلب التزم – في استكماله للمهمة – ، وفي وضعه للأيديولوجيا الهاشمية – بخطوط التجربة الإسرائيلية ؛ فقد انتهى إلى أنه لا حل سوى أن يكون منشئ الدولة العربية المرتقبة نبيًا مثل داوود عليه السلام .

[٥] بالوصول إلى حل " النبي الملك ، أو الملك النبي " كحل سبق تجريبه ، وحقق وحدة " أسباط اليهود " في دولتهم الغابرة ؛ وليبقى أمر التنفيذ ـ كما في أمر التخطيط ـ محصوراً في البيت الهاشمي ؛ فقد ذهب د/ القمني إلى أن عبد المطلب زعيم قريش، وقائد الحزب الهاشمي سلَّم عقله ويداه لـ "الحبر اليهودي" ؛ ليشاهد ويشهد " أن في إحدى يديه مُلكًا ، وفي الأخرى نبوة " ؛ وليرشده ـ بعد قراءة الكف ـ بحتمية زواجه من بني زهرة ؛ لأن فيهم الملك والنبوة ، وسارع عبد المطلب بالزواج هو ، وابنه عبد الله من بني زهرة في ليلة واحدة .

وبالتحول " الانقلابي والثوري " للصراع الهاشمي الأموي من صراع ساذج على إطعام قريش الثريد ـ كما في الخبر التراثي ـ ، إلى صراع حضاري غير مسبوق في التاريخ ، وبوضعه " الأيديولوجيا " الهاشمية استطاع عبد المطلب ذلك العبقري الفذ أن يغير ـ بجذرية ـ ليس فقط الواقع العربي الجاهلي ، وإنما أيضًا كل المستقبل الإنساني بدوره " التأسيسي" للدين (الحنيفية ـ الإسلام) ، وللدولة (العربية الإسلامية) ، و(لنبوة حفيده محمد ﷺ) .

(د) ما بعد أخطاء المنهج :

نعم في توثيقه لدور عبد المطلب " التاسيسي " للدين " التوحيدي " قطع القمني بأن ما ذهب إليه هو نفس ما يؤكده ابن كثير ـ رحمه الله ـ بما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن " ديانة أبي طالب بن عبد المطلب : هو على ملة الأشياخ . هو على ملة عبد المطلب " . وبالرجوع إلى مرجع القمني (البداية والنهاية ج ٣ ص ١٧٠ ، وجدنا ابن كثير " في فصل وفاة أبي طالب " .

وفي تعليقه على آية : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص:٥٦] ،يروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما انها نزلت في أبي طالب حين عرض رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقول : لا إله إلا الله ، فابى أبو طالب أن يقولها ، وقال : هو على ملة الأشياخ .. هو على ملة عبد المطلب " .

ومن سياق ما رواه ابن كثير ـ رحمه الله ـ (وأخفاه القمني بقصد) نفهم أن الحفيد ـ عبد الله ابن عباس بن عبد المطلب ـ روى أن عمه ـ أبو طالب ـ رفض أن يقول :لا إله إلا الله وتمسك (ضد هذا القول التوحيدي) بملة الأشياخ (آباء البيت ـ الحزب الهاشمي ـ) ، وتحديداً بملة عبد المطلب التي حسب ظاهر وباطن السياق لا تقول ـ أي لا تؤمن ـ بـ " لا إله إلا الله " .

ورواية الحفيد ـ ابن عباس ـ استشهد بها ابن كثير (ج ٢ ص ٢٨٥) لتاكيد موقفه الذي سجله في أكثر من موضع في كتابه من أن " عبد المطلب مات على ما كان عليه من دين الجاهلية " .

ونضيف أن ما فعله القمني من تحريف وتزوير لما رواه ابن كثير قد كرر فعله مع ما نقله عن " السيرة الحلبية " في توثيقه فيما أسماه بـ " علم عبد المطلب اليقيني بنبوة حفيده محمد ﷺ " ، وسعيه لتحقيق هذا اليقين على أرض الواقع بالزواج

من بني زهرة [١] .

وأيضًا هذا التحريف ، وهذا التزوير المتعمد هو ما فعله مع ما نقله عن كتاب " طوالع البعثة المحمدية " " للعقاد " في توثيقه لشرط " توحيد الأرباب " في أنه كمقدمة لازمة لـ " توحيد القبائل "في دولة ، ولشرط أن يكون منشئ الدولة المرتقبة نبيا مثل داوود " عليه السلام " .

وكل هذه الوقائع وهي قليلة جداً من كثير جداً تؤكد تدخل « القمني » في نصوصه ما جعله يجبرها " بالتحريف والتزوير " على تمكينه (كماركسي ـ مادي) من تخييل عبد المطلب ليس فقط كقائد للحزب الهاشمي في صراعه الأسطوري مع الحزب الأموي ، إنما أيضًا والأهم لتخييله " كمؤسس للدين (الحنيفية ـ الإسلام) ، وكل هذا لحصر دور حفيده " محمد بن عبد الله بن عبد المطلب " في دائرة التنفيذ . هنا نود لفت نظر القارئ إلى سكوت « القمني » عن تناول ، أو حتى الإشارة إلى المساحة الزمنية الفاصلة بين انتهاء التخطيط لمثلث (الدين ـ الرسول ـ الدولة) في حياة الجد عبد المطلب ، وبين بداية التنفيذ بإعلان" الحفيد " محمد نبوته .

فالمعروف أن عبد المطلب مات ، ومحمد ـ ﷺ ـ في الثامنة من عمره ، ومحمد أعلن نبوته في سن الأربعين أي ، أن المساحة الزمنية الفاصلة بين التخطيط والتنفيذ تزيد على الثلاثين سنة ، وطول هذه الفترة يستنفر في عقولنا السؤال الطبيعي عن مدى فاعلية أداء " الحزب الهاشمي " أثناءها ؟ .

وهل تلقف راية " الحزب الهاشمي " أحد أبناء عبد المطلب لاستكمال الكيان التنظيمي ، والأيديولوجي؟ ، أم أن عبد المطلب استكمل كل شئ ؟ .

---

(١) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون . ج١ ص٧٣ . علي برهان الدين الحلبي . بيروت : دار المعرفة ط ١ .

وهذا كان يوجب على « القمني » أن يشغل عقله بالسؤال عن الموانع التي منعت عبد المطلب من تنفيذ ما خطط له ؟ أو بالسؤال عن أسباب زهد أبناء عبد المطلب في نيل شرف تنفيذ خطة " الحزب الهاشمي " ؟ .

- وهل مرور هذه الفترة الطويلة جداً كان نتيجة فراغ قيادي ؟.
- أم كان نتيجة تمرد أبناء عبد المطلب على دينه الذي أسسه ؟.
- أم أنه حسب الخطة المرسومة ، والمدروسة ، والمنظمة كان كمونًا تكتيكيًا معلومًا ، ومتفق عليه بين قيادة وقاعدة الحزب الهاشمي إلى حين تهيئة الحفيد " محمد " لـ " الداودية (النبي – الملك) ؟!.

ونستطيع القول : أن هذا هو ما حاول « القمني » طرحه ليس كفرض ، وإنما كحقيقة موثقة .

فالثابت في دراسات القمني أنه كما اعتمد الجد " عبد المطلب " على التجربة الإسرائيلية (العرقية ـ الدينية ـ السياسية) في تأسيسه للدين وللدولة ، وفي ترويجه لنبوة حفيده ، فالحفيد ـ محمد ـ في تنفيذه لـ " خطة " جده تخفف من العبء الأخلاقي .

فأولاً : ولتحقيق الأمان تزوج " الأرملة الثرية " خديجة بنت خويلد بعد خداع والدها ، وتغييبه عن الوعي بالخمر لانتزاع موافقته التي تنكر لها بمجرد استيقاظه ، ووصل الأمر بالأب إلى حد التظاهر ضد هذا الزواج في شوارع مكة ، ولتأكيد الخداع أشار « القمني » وبكل ثقة إلى نقله هذه المعلومة عن ابن كثير ، وبالرجوع إلى ابن كثير ـ مرجع القمني ـ وجدناها بنصها في كتاب (البداية والنهاية) .

ولكن وجدنا أيضًا ، وأخفاه " القمني بقصد " أنها رواية ضمن روايات جمعها ابن كثير ليرجح رواية أخيرة هذا نصها :

" قال المؤمّلي : المجتمع عليه أن عم خديجة عمر بن أسد " وليس والدها " هو الذي زوجها محمد - ﷺ - (١) .

وهذا في رأي ابن كثير - رحمه الله - الذي رجحه السهيلي ، وحكاه ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم ، وقالت : وكان خويلد مات قبل حرب الفجار ، أي قبل زواج محمد من خديجة بخمس سنوات .

وثانيًا : والمهم عند القمني أنه بعد تحقيق الأمان المالي بدأ الحفيد - محمد - يتابع خطوات جده لتحقيق النبوة بالوحي . وهي خطوة قادته إلى سرقة أشعار أمية بن الصلت ، وادعاء أنه وحي الله إليه ، وبقصد وبدون الشعور بالخجل ، وليوهم القمني بأن ما قاله عن " المصدر الشعري الجاهلي " للقرآن ليس رأيًا تفرد به ؛ فقد أكد أن ما قاله كان نقلاً عن عالم مشهود له بالموضوعية ، والدقة هو د. جواد علي .

وبالرجوع إلى موسوعة د/ جواد علي . اكتشفنا أن القمني كدأبه قام بعملية تحريف وتزوير لأقوال د/ جواد علي ليجبره على أن يقول بما ختم به القمني دراساته واتهامه للنبوة والإسلام (٢) .

هذا هو الفكر العلمي الجاد - كما يقول العلمانيين ، ومن حذا حذوهم - لمثل هذا الباحث الماركسي ! تحريف ، وتزوير ، واستخفاف بعقول القراء ، ورؤية

---

(١) البداية والنهاية . ج٢ ص٢٩٩ . عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير . دار الكتب العلمية . بيروت لبنان . تحقيق د/ احمد أبو ملحم . ود/ علي نجيب عطوى . والأستاذ / علي عبد الستار . والأستاذ / فؤاد السيد .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . (جـ ٦ من ص٤٩٠ حتى ص ٤٩٨) . د/ جواد علي . طبعة بيروت .

ساذجة ، تكشف ياس هؤلاء أمام الإسلام ، ولايمكن أن توضع تحت مسمى البحث العلمي ، أو الفكر ، ولا حتى القصص الخيالي [١] .

(١) الموضوع ماخوذ عن ا / منصور ابو شافعي .من مقال على إسلام اون لاين ٩-١٠-٢٠٠٤ ، الشبكة الليبرالية الكويتية . ٦-٥-٢٠٠٥م . بتصرف ، مع توثيق الروايات بالرجوع للمصادر .
ويمكن الرجوع للتفاصيل إلى : كتاب . مركسة الإسلام صدر ١٩٩٩م ، وكتاب مركسة التاريخ النبوي صدر ٢٠٠٠م .

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث السادس: الهزل وغيبة العدالة في تناول الإسلام

ولابد أن يعي المسلمون هنا معنى اشتراط عدالة العلماء في الإسلام ، والتي هي مقدَّمة على أي أمر .

فهي عدالة جامعة لاتقف عند اجتناب المعاصي ، وإنما هي أولاً عدالة "الرأي" ، وأمانة الفكر قال تعالى :﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

فشرط العدالة يطلبه الإسلام في العلماء . وهو أمر ثابت نقلاً وعقلاً .

لذلك تزداد الدهشة عندما نرى في حياتنا الفكرية الراهنة بعضًا آخر من تلامذة التنوير الغربي ـ العلماني الذين يقدمون أنفسهم للقراء على أنهم مجتهدون في الإسلام " مجدّدون " في فكره مع افتقارهم وافتقادهم للحدود الدنيا من دراية العلم وعدالة العلماء ... ، بل ومع اتصافهم بقدر من سوء النية في عرض حقائق الإسلام ومذاهب فكره ، فمثل هؤلاء كمن ينزع من الأمة الإسلامية سلاحها في مواجهة أعدائها ، وهي في حالة حرب ، ثم نجدهم يصرّون على أنهم يتحدثون باسم الإسلام فهم مسلمون ، ويدافعون عن الإسلام ضد التخلف والرجعية – كما يزعمون – .

ولننظر على سبيل المثال لبعض رموز هؤلاء التنويريين العلمانيين أمثال :

أولاً : حسين أحمد أمين :

وحسين أحمد أمين في كتابه ـ حول تطبيق الشريعة ـ الاجتهاد في الإسلام: حق أم واجب ؟ .

يخلص إلى أن الماضي الإسلامي الذي كان يعتز به وبأبطاله جميع المسلمين هو

إلى حد كبير من نسيج خيالاتنا نحن وخيال مؤرخينا ، ولم يكتف بذلك ، بل يختلق الأحاديث زوراً وبهتانًا ، ودونما أي إحساس بالخطأ ، وهو يطلب لجنة لتطوير الدين والعقائد ، وإعادة النظر في الفرائض والعبادات ... إلى غير ذلك من الأمور التي تخرج عن أبسط السمات العلمية والعقلية .

ونجد أمثال هؤلاء التنويريين يضعون زوراً وتدليسًا رفاعة الطهطاوي ، وجمال الدين الأفغاني ، والإمام محمد عبده وسط روادهم كسلامة موسى ، وعلي عبد الرازق ، ويخلطونهم زوراً وبهتانًا بفرح أنطون ، وإسماعيل أدهم ، وغيرهم .

ولايتخيل هؤلاء نجاحهم في عمليات التزوير والخلط كتزويرهم على "الإمام محمد عبده " ، وكتابه" الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية " ، والذي كان عبارة عن مقالات يرد بها على " فرح أنطون " ، ثم جمعها الشيخ " محمد رشيد رضا " ، وطبعها في كتاب بعد موافقة الإمام عليها ، وقد غيروا عنوان الكتاب بحذف " كلمة النصرانية " ، وحذف أكثر من ثلاثين صفحة في رده على المسيحية على " فرح أنطون " ، وبدلوا أكثر من ذلك ؛ فحذفوا ما كتبه الإمام عن أصول النصرانية ، ولم يقفوا عند الحذف بل أدخلوا في الكتاب ماليس منه [١] ؛ ولذا فنحن مدعوون إلى الانتباه لهذا الخلط ، وهذا التزوير وفضحه ، كما يجب أن يحذر الباحثون الإسلاميون من الوقوع في هذه الأخطاء ، وعلى سبيل المثال ما وقع فيه " عبد الله المالكي " [٢] ، وهو يتحدث عن التجديد ، وعن الممارسة المنحرفة لمصطلح التجديد عند البعض ، وإذا به يقول : " يعتبر الشيخ محمد عبده هو المؤسس الفعلي للاتجاه ـ التبريري ـ أي التأويل في النص لتبرير الواقع ، والذي سمي فيما بعد بالاتجاه العصراني أو التنويري . وقد تأثر به جماعة من الدعاة والمفكرين الإسلاميين كالشيخ محمد الغزالي ، ويوسف

---

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير . ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ . د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط ٢ . ٢٠٠٢ م .

(٢) مقالة من شبكة الإنترنت . ٧- ٢٠٦ م . عبد الله المالكي .

القرضاوي ، وسليم العوا ، وفهمي هويدي . وهو ما وقع فيه أيضًا " بسطامي محمد سعيد " عندما خلط بين العصرانية الغربية ، وبين التجديد في الإسلام ، ونجده يتحامل على الإمام محمد عبده ، ويضعه مع هؤلاء العصرانيين (١) ، وما وقع بعض مثقفي وعلماء المسلمين في هذا إلا من عدم التصدي بالقدر الكافي من العلماء الأثبات لأمثال هؤلاء المدلسين على الإسلام والمسلمين ، وفضحهم بين عامة وخاصة المسلمين ، وبيان ضعف دعوتهم .

ثانياً : محمد أركـــون :

ومحمد أركون يُذكّر قارئه دائماً بأنه مفكر إسلامي ، ينطلق من داخل فضاء الفكر الإسلامي ، وبالتالي فلا ثمة شبهة تحوم من حوله كما تحوم الشبهات عادةً حول المستشرقين ! .

وللتشكيك في القرآن يستخدم محمد أركون بعض المناهج التاريخية واللغوية، وفي حين أفاد أحد المستشرقين عبر دراسة تاريخية ناقدة رافقتها اليقظة العقلية والضميرية معاً أن الحديث الضعيف في الإسلام يعتبر من حيث منهج التحقيق التاريخي أصح نصاً من كامل نصوص التوراة والإنجيل المستخدمة اليوم ، فإن محمد أركون يحاول أن يعكس هذه النتيجة .

ويستخدم محمد أركون ، مايعرف بـ " المنهج المعرفي التفكيكي " الذي أرسى دعائمه تقليداً ، بقصد التعامل مع الموروث الإسلامي، والفكر والعقل الإسلاميين ، بشكل تفكيكي تقويضي ، يهدف إلى تأسيس عقل استطلاعي منبثق حديثًا ، ينتهي إلى زعزعة المنظومة المعرفية التوحيدية ، والتي برزت في صورة اجتهادات في شتى حقول المعرفة (كلامية ، أصولية ، فقهية...) .

---

(١) مفهوم تجديد الدين . ص ١٩ . بسطامي سعيد . دار الدعوة . ط١ ١٩٨٤ م .

ويرى محمد أركون أن القرآن والكتب السابقة تعاني من سياق واحد ، ويضع القرآن مع الأناجيل في مستوى واحد من الثبوت والدراسة ، ويرى أهمية النقد والتجديد . وعمله هذا النقدي السلبي النافي ـ الذي يمسخ كل الحقائق وكل المعاني ـ لا يمكن بحال أن يكون مذهباً فكرياً بديلاً ؛ فالشك والجحود بكل شيء لن يكون أبداً بديلاً للإيمان ، إذ هذا العدم لا يكون ديناً ولا يبني خلقاً .

ويسعى « أركون » من خلال مشروعه المعرفي التفكيكي ، إلى بناء نمط معرفي جديد ـ فيما يعتقد ـ ، يتجاوز المرجعية الإسلامية التاريخية ، والمتمثلة في القرآن ، وذلك بادعاء بشريته ـ أي القرآن ـ ؛ إذ هو يميز في القرآن بين ما يسميه : " **الخطاب النبوي ، وبين الكلام الإلهي** " ، وهذا الأخير ـ حسب ما يرى ـ تكلم به الإله في الأزل ، ولا يقدر أي خطاب بشري على احتوائه ، وبالتالي يترجم النبي الموحى إليه المعاني المستقرة في نفسه ، بخطاب إنساني متلبس بمقتضيات الزمان الذي قيل فيه الخطاب ، ومن هنا لا يمكن رفع القرآن إلى مستوى الكلام الإلهي ، لأنه مجرد خطاب نبوي ، تلفظ به النبي محمد ﷺ بما يتوافق ومستواه اللغوي ، ومقدرته البيانية ، وإذن فالقرآن ليس إلهي المصدر في لغته ، ولا في أحكامه ، إذ أن هذه الأخيرة لا ترتفع عن كونها وعيًا بشريًا إنسانيًا ، استوعبه النبي محمد ﷺ بما يناسب ويوافق المرحلة التاريخية التي وُجِدَ فيها ، ومن هنا لا جدوى من القول بأزلية الشريعة ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

ثم يدّعي « أركون » بعد ذلك أنه يعده إلهيًا ؟! .

ويرى « أركون » أن النسخة المدونة الموجودة بين أيدينا اليوم ما هي إلا صورة مؤقتة نسبية مغلقة للمعنى الإلهي الأزلي المطلق ، أو ما فوق المطلق، المُستوعب لامتدادات التاريخ وتقلبات الأيام ، زيادة إلى أن القرآن الحالي نسخة قديمة فرضتها فئة من الصحابة على جميع المسلمين في جميع التاريخ ، مع أن هناك

مصاحف أخرى ونماذج أخرى للقرآن تم الاستغناء عنها ، بدعوى الإقصاء السياسي الذي أحدثته قريش لبقية القبائل واستئثارها بالخلافة ، في مقابل القبائل الأخرى ، بإبعاد لغاتها وقراءاتها ، وتبني لغة قريش على أنها لغة الله .

واللغة المشار إليها ، تُعقَّد باستمرار عمليات التحليل والتفكيك ، لاتصالها بسياق دلالي ولغوي تاريخي مضى وانقضى ، والتعامل مع القرآن في إطار تلك اللغة يستدعي تجاوبًا تقديسيًا ، يعمي العقل ويغشيه بحكم الهالة التعظيمية التي يحاط بها الخطاب النبوي ـ القرآن ـ ، وهذا ما أعجز العلماء بالإسلام عن تكوين نظرية قرآنية ، تمكن من دراسة القرآن وتبين معانيه ، عكس الوارد عند علماء اللاهوت في فكر الآخر ، يهوديه ومسيحيه ؛ لذا لا مندوحة من تخليص أساليب تناول الخطاب النبوي من هيمنة اللغة العتيقة ، ومن سيطرة تناول علماء اللاهوت والأصوليين الإسلاميين ، وإحلال الإسلوب الحديث في تناول القرآن ، والاستفادة من تطورات العلوم الحديثة ، التي يجب إقحامها عنوة – بالمعنى المعرفي – للتمكن من تفكيك الخطاب القرآني النبوي ؛ لإدراك التلاعبات الحاصلة داخله ، من زحزحة بعض الفئات المُخَاطبة ، والتركيز على أخرى .

وهذا كله ينتهي بالطبع إلى هدر السياق الإلهي للقرآن الكريم ، من حيث المصدر الإلهي .

ومتكأه في ذلك المجهود الذي قامت به المعتزلة قديمًا ، وهذا كذب وجهل ، وخلط للحقائق ، فلا مقارنة ولا تشابه بين التقسيم المعتزلي للخطاب الإلهي ونعته بالمخلوق ـ أي خلق القرآن ـ ، وبين التناول الاركوني وقصده الإهداري التمييعي ـ ، زيادة إلى إسقاط الجدوى المعرفية لجهود علماء اللغة والأصول والكلام المسلمين ، وتفضيل مقابلهم الغربي عليهم ، وهذا إظهار للولاء المفضوح لفكر الآخر والذوبان فيه ـ ، والقصد من ذلك تجريد القرآن والفكر الإسلامي ،

من أرضية منهجية ومعرفية متينة ، تم تطويرها عبر قرون طويلة ، انتهت إلى صياغة منهجيات معرفية متعاضدة ، يقوي بعضها البعض الآخر ؛ ليخلو المجال للانقضاض على القرآن والإجهاز عليه (١) .

ومع تشكيك أركون في صحة ورود المصحف ، فهو يورد تشكيكاً آخر في صحة الوحي نفسه .

إن محمد أركون يريد أن يفهم الوحي كما يقول : " بصفته ظاهرة لغوية وثقافية قبل أن يكون عبارة عن تركيبات ثيولوجية أو لاهوتية " ، ومعنى ذلك أنه يريد أن يفهم الوحي باعتباره ظاهرة لا دينية،أو لا تتعلق بالتعاليم الدينية ، وإنما ظاهرة حياتية هامة يدرسها ويقرر فيها علم اللغة أو علم الاجتماع ، ويحاول أن يفهم وظائفها .

يتضح من ذلك : أن هدف محمد أركون تأسس على هدر الطابع الإلهي للقرآن ، والتأكيد على بشريته ، تمهيداً لنكرانه والإلحاد فيه ، زيادة إلى التزهيد في المقدرة المعرفية للقرآن في توليد الوعي ، وصناعة الفكر وبناء العقل ، ثم العمل على ربط " الوحدات النصية " ، " هكذا يسميها " ، الآيات القرآنية بلازمات زمانية ، وربما ظرفية مكانية ، في مضمونها وملفوظها ، وهذا أيضًا لإسقاط الطابع المتجاوز للأحكام ، كمدخل لرفض الشريعة ، وتعويضها بالاجتهاد الوضعي .

(أ) تجاوز الشريعة عند « أركون » :

ونجد محمد أركون يتخطى كل ذلك ويتخطى الشريعة الإسلامية في مقرراتها

---

(١) تم الاستفادة هنا من مقال " الاستراتيجية الأيديولوجية لمنهج محمد اركون المعرفي " الحاج / دواق بن جمنة آل بوعافية : موقع الشهاب . ومقال " اركون وعلمنة الإسلام " د/ محمد وقيع الله . شبكة الإنترنت .

الحاسمة ، ومع ذلك ينصب من نفسه مفكراً " إسلامياً " أو " المفكر الإسلامي الأوحد " ! .

إن محمد أركون ـ ابتداءً ـ يرفض " أن نطلق تلك الخطابات التبجيلية من أجل حماية قانون ذي أصل إلهي ، وبالتالي الزعم بأنه لا يتغير ولا يتبدل " ، أو الاعتقاد بأنه يتفوق على كل القوانين التي بلورها البشر في أماكن ومجتمعات أخرى .

ومن هذا المنظور يتحدث أركون باستخفاف عن الآيات التي تتحدث عن تعدد الزوجات ، والطلاق ، والإرث ، وتفوق الرجال على النساء ، والحجاب ، والنسب . وفي اعتباره أن هذه الموضوعات حسمتها الحضارة الحديثة ، وأنه من : " التافه أيضاً أن ننخرط في مناقشات طويلة حول هذه الأمور " .

هذا على مستوى فقه الأسرة والعلاقات الشخصية ، والمقصود النهائي من وراء هذه العبارات نسف فقه الأسرة بأكمله .

أضف إلى ذلك الإكبار المبالغ فيه لمناهج الغرب المعرفية ، التي أبدعتها عقول متأسسة على وعي آخر ، وإدراجها في تناول القرآن بكيفيات غير صالحة ، لكون منبتها ، خطابات إنسانية أدبية وعلمية وفنية ، ولمغايرتها للطابع الإلهي للبيان القرآني ، إضافة إلى الزهد في مبدَعَات العقل الإسلامي ، والإصرار على ضحالتها وضعفها ، وهكذا...

والمطلوب من المفكر ، والمثقف ، والمتعلم ، والعالم المسلم ، العمل نظريًا على تفويت الفرصة معرفيًا على أمثال هؤلاء ، والإلحاح على إعجاز القرآن واستعصاءه على المناهج الحديثة للفكر الغربي ، وأن في الفكر وعلم الأصول الإسلاميين ، ما يغني ثقافة الأمة ويثريها ويحررها ، وإن كان من الضروري الاستفادة من فكر الآخر ، لا مفر من عرض ذلك على مناهج الفكر الإسلامي المعرفية والأصولية ،

حتى تتم عملية الغربلة والتنقية من المضامين المباينة للطابع التوحيدي للرؤية الوجودية الكونية الإسلامية ، حتى ينتفع بها .

(ب) التجديد عند « أركـــون» :

يوهمنا أو يدعي محمد أركون ـ كعادته ـ في كثير من كتبه أنّه في ردّه على مفردات الفكر الإسلامي لا يسفّه مرتكزات الشريعة الإسلامية ، بل يعمل جاهداً على تصحيح الفهم الإسلامي دون أن ينقد مصادر التشريع .

إلا أن « أركون » يخرج من سياق البحث إلى سياق الرّد على مرتكزات التشريع الإسلامي وكثير من البدهيّات والمسلمّات التي لها أصولها الضاربة في عمق الشرع الإسلامي .

إن « أركون » يدعو إلى " تجديد الفكر العربي والإسلامي " ، ولكن دون تقديم البديل المتكامل ، فما جدوى النسف دون تقديم البديل الذي ننطلق منه لبناء النهضة ؟ .

إن تجديدية « أركون » هي في الحقيقة تجديدية عدمية ، ولا نحسب أن مسلماً عاقلاً يهتم لقراءة أركون النافية .

ويرى الدكتور " محمد أركون" أنّ علماء الاجتهاد في الإسلام قد جنوا على الاجتهاد عندما فرضوا مجموعة من الشروط والمقاييس لا يصّح الاجتهاد بدونها .

وفي ذلك يقول : " .. نقصد بذلك مؤسسّي المذاهب الكبرى اللاهوتية القانونيّة الذين ثبتوا للقرون التالية المدونات القانونيّة والعقائد الإيمانيّة الأرثوذكسيّة ، وعلم أصول الفقه أي المعياريّة الضروريّة من أجل استنباط الأحكام بشكل صحيح من النصوص المقدسّة القرآن والسُّنّة ، وهكذا نجد أمامنا

في بضع كلمات فقط كل شروط ومحدوديّة ممارسة الاجتهاد في الفكر الإسلامي الكلاسيكي" (١) .

ومن الواضح أن " محمد أركون " غير مطلع على آليّة الاجتهاد في المدارس الإسلامية كافة ، فالاجتهاد الذي يعني بذل الجهد لاستنباط الحكم الشرعي لا يعني مطلقاً مجموعة من الشروط يضعها الفقهاء ومن يجتهدون لتفعيل الشرع ، وجعله مواكبًا لصيرورة حركة التاريخ والواقع ، وليس الاجتهاد شروطاً يضعها ويتوصّل إليها عقل المجتهد .

وفي سياق رده على الإمام محمد عبده ، ودعوته إلى فتح باب الاجتهاد ، فإنّ محمد أركون يتهم الشيخ محمد عبده بأنّ مفهومه لفتح باب الاجتهاد ، هو عبارة عن شرعنة البدعة التي كانت فيما مضى غير محسوبة على التراث الإسلامي ، ويحاول « أركون » أن يقوّل « محمد عبده » ما لم يقله ، وربمّا ضعفه في اللغة العربية جعله يسيء فهم بعض المفكرين المسلمين .

(جـ) نسف أركون لمبدأ الإجماع :

تتفق المدارس الإسلامية على أنّ الإجماع يشكّل مصدراً من مصادر التشريع ، ومنذ خمسة عشر قرناً ، والمسلمون يلجؤن إلى الإجماع ، إمّا لسدّ الفراغ في دائرة الفتوى ، وإما لجعل الشريعة الإسلامية تتواصل مع الحاضر ومستجداته الكثيرة .

أمّا الدكتور محمد أركون فله رأيه في الإجماع ، فهو يقول :

"يعرّف الإجماع عموماً من قبل المسلمين الذين يمشي على آثارهم

---

(١) من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي . ص ١١ . محمد اركون . ترجمة وتحقيق/ هاشم صالح .دار الساقي للطباعة والنشر١ / ١٩٩٣ م.

المستشرقون بأنّه أحد أصول القانون الديني ، فإجماع المسلمين على مسألة من مسائل العقيدة والقانون يؤدّي في آنٍ واحد إلى ضرورة الانصياع له ، كما أنّه يشكّل علامة من علامات الأرثوذكسيّة التي ترسّخ وحدة الأمة،وتراص صفوفها، ولكن السؤال المطروح : إجماع من ؟ وما هو عددهم" ؟ (١) .

ومن خلال إسقاطات عدّة، من قبيل الحديث عن عدم التجانس بين المسلمين ، والخلافات الضاربة بينهم ، وهشاشة مجتمعاتهم.. يخلص « أركون » إلى استحالة الإجماع .

ويعكس فهم وتعريف « أركون » " للإجماع " بأنّه يفتقد إلى فهم كلي للشريعة الإسلامية ومصطلحاتها ، " فالإجماع " لا يعني توافق المسلمين رغم ما فيهم من ضعف ، بل هو توافق أهل العلم المشهود لهم بالعلم والتقوى أيضاً .

ويمكن القول من خلال تتبّع إنتاج محمد أركون : أنّه يعتبر أنّ النصوص القرآنية متناقضة ، وبالتالي هو يراها ـ أي أركون- لا تصلح أن تكون مصدراً للتشريع الإسلامي ، وقد تكون كذلك عندما يتيسّر لنا تفسير جديد لها ، يأخذ بعين الاعتبار المرجعية النقدية ، والمعرفية المعاصرة الغربية طبعاً .

ويعتبر « أركون » أنّ السُّنّة النبوية هي الأخرى ليست أفضل حالاً من القرآن الكريم ، وأن وضع المجتمعات الإسلامية في الماضي والحاضر دليل على أنّ السُّنّة شكلت انعكاساً للتخلف والتقهقر اللذين سادا المجتمعات الإسلامية ، والإجماع لا يمكن تحقيقه والعقل الإسلامي في عطلة إلى إشعار آخر ، إذن ـ وحسب رأي أركون ـ فمصادر التشريع الإسلامي في حاجة إلى إعادة سبك وصياغة وقولبة ؛ ولذلك فهو يدعو مليار وربع المليار مسلم إلى الثورة على ما يظنّه

---

(١) من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي . ص٧٧ .محمد اركون . ترجمة وتحقيق/ هاشم صالح.دار الساقي للطباعة والنشر ١ / ١٩٩٣ م .

صحيحاً وسليماً . لكن وبعد الثورة على مرتكزات التشريع الإسلامي ماذا عسانا نفعل؟! .

إلى هنا ينتهي دور محمد أركون ، لتبدأ الحضارة الغربية ، وأركون أحد المدرسين في قلعة من قلاعها "السوربون" بثّ فيضها إلى العالم العربي والإسلامي . إنها مغالطة كبرى [١] .

وبعد هذا العرض يتضح لنا بجلاء أننا أمام مشروعين للإحياء والنهضة والتحديث .

ثالثاً : مشروعان للإحياء والنهضة والتحديث:

والحقيقة أننا إزاء مشروعين للإحياء والنهضة والتحديث :

[أ] مشروع التجديد الإسلامي ..للنهضة والإصلاح والإحياء بالإسلام كمرجعية تفجر في الأمة كل الطاقات الإبداعية في كل الميادين .. وله أعلامه الذين مثلوا منارته الحديثة مروراً من الطهطاوي ، وحتى تاريخنا هذا .

[ب] مشروع التنوير ـ الغربي ـ العلماني الذي جاءنا في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة . . فانبهر من انبهر من مفكرينا ومثقفينا ـ كاجتهاد خاطيء ـ تم العدول عنه في مرحلة النضج ، أو كعمالة حضارية من الكارهين لبديله المتمثل في الإسلام .

فهما مشروعان للتحديث والإحياء والتقدم، وليس مشروعًا واحدًا للتنوير ، كما زعم ، ويزعم الذين خلطوا الأوراق عمداً ؛ فحشروا " التجديد الإسلامي " مع " التنوير الغربي العلماني " .

---

(١) تم الاستفادة هنا من " مقال محمد أركون في ميزان النقد " لـ .يحي ابو زكريا . مجلة المجتمع . شبكة الإنترنت .

❁ والحقيقة أننا لانخشى مطلقًا من المشروع الثاني ـ التنوير ـ الغربي ـ العلماني ـ فمصيره الفشل لامحالة ، فهؤلاء يلقون بذورًا لا يمكن أن تنبت في أرض المسلمين ، فهذه البذور ليست في مكانها ، وليست في بيئتها ، وأقصى مايفعله هؤلاء هو إفساد ذوق وسلوك البعض ، والعبث بأفكار البعض ، وحتى ذلك فهو لفترة ثم ينكشف ، ويستحيل أن تختلط بشريعة الإسلام الربانية النسيج .

ولكن يبقى دور المشروع الأول ـ التجديد الإسلامي ـ فيجب ألا يتجمد أو يتوقف بل لابد من رعايته باستمرار لأننا نلقي البذور في أرضها وفي بيئتها ، فلابد أن تنمو وتثمر بقدر رعايتنا لها .

ففارق كبير بين الثورة على الدين وإسقاط الوحي ، وهو أقل ما يمكن أن يوصف به تجديد هؤلاء الشرذمة من العلمانيين التنويريين ، وبين سُنَّة من سنن الدين الإسلامي ، وهي تجديد دين الأمة الإسلامية على مر العصور ، وفي جميع البيئات .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : " **يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** " رواه أبو داوود .

وهذا القصور العقلي والمعرفي الذي يقود هؤلاء ، وهذا الوهم التاريخي والتزوير المتعمد ، والذي لاعلاقة له بالعلم ولا بالتاريخ ، وسلسلة الكذب المتواصلة للقمني ولأمثاله ، ونسجه للخيال الذي لايقبله عقل ، والذي يستحق معه أن يكون موضوعًا للسخرية بين شباب المسلمين لو كانوا على بينة بتاريخهم الإسلامي .

ونحن كمسلمين نعلم مثل هذا العداء والرفض للإسلام والقرآن والرسول ﷺ ،

والتاريخ حافل بأمثال هؤلاء وغيرهم ، ولم يكونوا الأول ، ولن يكونوا الآخر، وكل مايقدمونه من طرح هو ضئيل جداً إذا قورنوا بمن سبقوهم ، وقد واجه المسلمون والإسلام منذ بداية انتشاره ، ثم تصادمه بالفلسفات اليونانية ، والدعوي في الشرق والغرب ما هو أشد وأنكى منها ، وعندما تحرك العلماء المسلمون لمواجهتها ذابت وتلاشت أمام قوة الإسلام ومنطقه وتحولت الفلسفة ـ لأول مرة في تاريخ البشرية ـ لخدمة الدين والتصدي لأعدائه .

وظل الإسلام على مدار التاريخ مُعجز ومسيطر عليها جميعاً ، وهذا ثابت تاريخيًا .

والفائدة الحقيقية هنا لاتتأتى فقط من متابعة كتاب ومفكري المسلمين لكشف هذا التزوير وهذا الكذب وهذا التخبط الفكري ـ والإسلام كفيلٌ بأن يفرز من يخرس هؤلاء ـ ، بل يجب علينا أن نتفهم طبيعة العصر الذي نعيشه ، وقد أصبحت المعرفة والثقافات المختلفة تقتحم العقول والبيوت وكل التجمعات ، لذا يجب علينا :

(أ) نشر هذا الكذب ، وفضح شخوصه ، وتعريتهم من عباءة العلم التي يتدثرون بها ، وإظهار حقيقتهم ، والتي تتنافى وأبسط قواعد البحث العلمي ـ الصدق، والأمانة ، والنزاهة ،والحيدة ـ في نقل الخبر ، ولا أقل هنا من تخصيص قناة تلفزيونية ، أوتخصيص برامج في قنوات الدول الإسلامية ، وغير ذلك كلما أمكن ؛ تقوم على متابعة ونشر ما يكتبه الباحثون والعلماء المسلمون حول هؤلاء لتحقيق غرضين رئيسيين هما .

[١] نشر الوعي، وتثقيف المجتمع المسلم بما يناسب طبيعة هذا العصر الثقافية والإعلامية .

[٢] تعرية هؤلاء الأشخاص في مجتمعات المسلمين ، وإظهار أكاذيبهم وشخصياتهم وأفكارهم الحقيقية ، لمحاصرة ما يروّجون له ، وما قد يحدث من خلل بين الشباب المسلم وعامة المسلمين .

(ب) العمل بالطرق القانونية المشروعة على استصدار قوانين تمنع أوتحد من الكذب والتزوير المتعمد على مصادر ومراجع المعارف الإنسانية ؛ لما لها من آثار ضارة على المجتمعات ؛ ولتعديها بالتزوير على المعارف والعلوم ، أو شئ من هذا القبيل يقوم به أصحاب الاختصاص ، إذا أمكن ذلك .

ومثل كل ذلك لايستطيع القيام به الأفراد أو الجمعيات ، وهويحتاج ولا شك تدخل الدول الإسلامية بإمكانياتها ، وتدخل القادة المسلمين ، والحكومات الإسلامية ، وإقامة أشكال للتعاون فيما بينها بما يخدم هذا الغرض ، وهذا ولاشك يدخل في إطار تجديد دين الأمة الإسلامية ، بل ويعد من الأمور الأكثر إلحاحًا في حياة الأمة الإسلامية في هذا العصر ، وفي هذه المرحلة من تجديد دين الأمة الإسلامية .

المبحث السابع: دعوى أن العصر الحديث قد تجاوز التشريع

وللرد على دعوى البعض أن العصر الحديث قد تجاوز التشريع الإسلامي ، إلى غير ذلك من الدعاوى الباردة، والتي تريد القضاء على الإسلام من داخل عقول وقلوب المسلمين ، نقول :

إن المسلمين الذين شهدوا بعثة الرسول ـ ﷺ ـ ، وامتد بهم الأجل إلى نهاية الخلافة الراشدة قد تطوروا تطوراً سريعًا في سائر جوانب الحياة في العمران ، والصناعة ، والتجارة ، والزراعة ، والمعارف ، والفنون ، وأصول المعايش ، وعوائد الطعام والشراب والأواني ، وغير ذلك ، دون أن يحوجهم ذلك إلى تطوير شيء من دلالات النصوص الشرعية .

ثم ننظر إلى التطور الحضاري الذي حظي به المسلمون من صدر الإسلام إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، نجد أنهم ضربوا في ذلك رقمًا قياسيًا تجاوز القدر الذي تطورته أي أمة في كل الوجوه الحضارية ، كما يقرر سائر المؤرخين ، فهل أعوزهم ذلك التطور السريع العجيب إلى أن يطوروا شيئًا من أحكام شريعتهم ، أو أن يبعثروا دلالات النصوص المحددة ؟! .

الذي نعرفه أن العكس هو الصحيح ، فالإسلام يطور أهله بمقدار ما يكون أهله أمناء على ثوابته ، فإن هم تلاعبوا به تخلى عنهم ، وأسلمهم إلى فوضى تقلباتهم .

إن الإسلام يطور، بشرط أن لايتطور بأيدي الناس ، ونشير هنا إلى الأطروحة

التي دعا إليها " وليم كليفورد " مدير معهد علم الإجرام في إستراليا ، والذي كان موفداً من قبل هيئة الأمم المتحدة ومن دوائر استعمارية ورائها لحضور سلسلة مؤتمرات المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة ، والمنبثقة عن جامعة الدول العربية ، والتي عقدت في أواخر السبعينات ، حضر " وليم كليفورد " سلسلة هذه المؤتمرات مراقبًا ، وكان قد طرح فيها مشروع يتضمن الدعوة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في معالجة الجريمة بأنواعها ، وفي أعقاب ذلك رفع تقريراً مطولاً إلى جهات مسئولة بعينها ، يبدي كليفورد في هذا التقرير مخاوفه مما يسببه انبعاثًا إسلاميًا جديداً ، بات ينذر بتجاوز العالم العربي حدوده التقليدية للممارسة الإسلامية ؛ ليتحول إلى نوع من السعي الحثيث إلى استعادة تحقيق الذات ، وهو السبيل الأقرب إلى أن يستعيد قوته وطاقته الاجتماعية الكفيلة بضمان نجاحه الاجتماعي .

ويتلمس " كليفورد " خطر هذا الانبعاث الإسلامي في عاملين اثنين هما :

أولاً : التفكير الجاد على مستوى الجامعة العربية في الرجوع إلى الانضباط بينابيع التشريع الإسلامي ، ولاسيما في نظام الروادع والعقوبات .

ثانياً : القوى المادية الأولى التي يتمتع بها الشرق العربي متمثلة في النفط .

ثم يؤكد « كليفورد » أن هذا الانبعاث الإسلامي بالإضافة إلى هذه القوة المادية كفيل بقلب موازين الحضارة كلها ، والقضاء على ماتبقى للغرب من هيبة ونفوذ .

ويضع بعد ذلك اقتراحات متعددة من أهمها :

[١] العمل على امتلاك ينابيع البترول بطريقة ما .

[٢] اتخاذ السبل المتنوعة بتشجيع مبدأ الاجتهاد في الإسلام باعتباره الأداة الهامة التي بوسعها أن تضفي الصفة الإسلامية على ما تتطلب الحضارة الغربية ومصالح الغرب تنفيذه من النظم والاتجاهات والقوانين الحديثة في العالم عامة ، وفي الشرق الأوسط خاصة (١) .

ونشير هنا أيضا إلى محاولة أخرى من "كولسون" (٢) ، عندما يقول أنه يعتقد أن استبدال القياس بالاجتهاد في تجديد " الشافعي" كان سببًا من الأسباب التي أدت إلى إغلاق باب الاجتهاد في الفقه الإسلامي ، وطبعه بطابع الجمود فيما بعد . وينصح لهذا في تطبيق التشريع الإسلامي – بوجوب فتح باب الاجتهاد على مصراعيه بمفهوم يماثل مفهومه قبل صياغة الشافعي – نظرية الأصولية – وفي رأيه أن هذا هو السبيل إلى تعبير التشريع عن الحياة الاجتماعية المعاصرة ، والمتأثرة بالنموذج الغربي ، بل نراه يرى " الإجماع " سببًا رئيسيًا من الأسباب المسؤولة عن جمود الفقه الإسلامي ، وتخلفه عن مجاراة الواقع .

وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول : يريد « كولسون » هدم الكيان الأصولي الذي أقام عليه فقهاء المسلمين البناء الفقهي،ويرى في الأصول التي ذكرها الإمام الشافعي وأقرها التالون عليه السبب في جمود الفقه ، وعجزه عن متابعة الواقع في العصر الحديث ، والخطوة التي يزعمها ويتبناها لاستئناف تطبيق التشريع الإسلامي نابعةً من تصوره لما كان عليه الاجتهاد قبل الإمام الشافعي .

---

(١) الإسلام والعصر تحديات وآفاق . ص ٢٢٨ : ٢٣٠ . د/ محمد سعيد رمضان البوطي . د/ طيب تزيني . الكلام للدكتور/ البوطي . دمشق ، بيروت : دار الفكر ، دار الفكر المعاصر . ط ٢ . ٢٠٠٢ م .

(٢) في تاريخ التشريع الإسلامي . ن.ج كولسون . ترجمة د/ محمد أحمد السراج . مراجعة د/ حسن محمود عبد اللطيف الشافعي . وكولسن هو أحد أهم أكبر المستشرقين الإنجليز المعاصرين المعنيين بدراسة الفقه الإسلامي وتدريسه بجامعة لندن ، وتتلمذ على يد المستشرق المعروف " يوسف شاخت " .

والمغالطة التي وقع فيها " كولسون " ، أو تعمدها ، وسار وراءه بعض مدّعي التجديد ممن لاعلاقة لهم بالفقه ولامعرفة لهم بأصول الفقه ، بل بأبسط أحكام الدين الإسلامي ، والذي نريد التأكيد عليه أن فقهاء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعين كان يبذلون الجهد في الوصول إلى الحكم الشرعي من النصوص الشرعية ، وهذه النصوص قد تضمنت أحكام فروع فقهية عديدة في موضوعات كثيرة ، كما تضمنت هذه النصوص كثيراً من القواعد التي يمكن الابتناء عليها لمعرفة أحكام ما لا نص فيه من الفروع،ثم إنها ـ أي النصوص ـ تضمنت الإشارة إلى الخطة التي يجب على الفقيه الاعتداد بها للوصول إلى الأحكام الشرعية ، وتتمثل عبقرية الإمام الشافعي الحقيقية في اهتدائه إلى ما عبرت عنه النصوص من عناصر هذه الخطة ، وإعادة تركيبها في شكل منهج أصولي يعتمد عليه الفقيه في الكشف عن أحكام الفروع التي لا نص فيها .

فالتشريع الإسلامي بمعنى الأحكام التي سنّها الله لعباده ؛ ليكونوا مؤمنين عاملين على مايسعدهم في الدنيا والآخرة لم يكن إلا في حياة الرسول ـ ﷺ ـ ، ومنه فقط ، إذ لم يجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأحدٍ غير نبيه ﷺ سلطة التشريع، وكان يعتمد فيه على الوحي بقسميه : المتلو ، وهو " القرآن الكريم " ، وغير المتلو ، وهو " السُّنَّة النبوية الشريفة " .

ففي حياته ـ ﷺ ـ وضُعَتْ القواعد الكلية ، وأُنشئت الأحكام، وبُيِّن مجملها، وقُيِّدَ مُطلقها ، وخُصِّص عامّها ، ونُسخ ما شاء الله أن ينسخ ، ونص على ما شرع جزئيًا ليأخذ حكم الكلي ، وليمكن تطبيق ذلك الحكم على ما يحدث من قبيل هذا الجزئي في أي زمن ، وعلى أي حال .

وبالجملة فقد أُحكِمَتْ قواعد هذه الشريعة ، وأُقِيمَتْ أُسُسُها ، وكَمُلَتْ

أصولُها في زمن النبي ـ ﷺ ـ يشهد بذلك قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] .

والرد إلى الله هو الرجوع إلى كتابه ، والرد إلى الرسول – ﷺ – هو الرجوع إليه في حياته ، وإلى سُنَّته بعد مماته [١] .

فالأمر هنا ليس فيه ابتكار أو ابتداع لشيء غير موجود ، وما فعله الشافعي في كشفه أصول الفقه ، وما فصله العلماء بعد ذلك من القواعد الشرعية ، مثال ما فعله " الخليل بن أحمد الفراهيدي " لكشفه علم العروض ، وبحور الشعر العربي القديم ، وما فعله " سيبويه " في وضعه قواعد النحو العربي في كتابه المعروف باسم " الكتاب " . والآن تبدوا المسألة واضحة .

أما " كولسون " ومن يسير على نهجه وخطاه لاستبعاد أصول التشريع واجتهادات الفقهاء المسلمين ، واستبعاد العناصر المحققة لذاتية التشريع الإسلامي وشخصيته ، فيعني بكل بساطة ووضوح القضاء على استئناف تطبيق التشريع الإسلامي .

ومتابعة للرد على قول كافة العصرانيين ـ كذبًا ـ أن الشريعة الإسلامية لاتتناسب والعصر الحديث ، وما يردده البعض : من أن الشريعة الإسلامية لم تُطبق بعد عصر الخلفاء الراشدين ، نقول :

---

(١) تاريخ الفقه الإسلامي . ص ١٧، ٢٨ . محمد علي السايس . وقال بذلك جمهور العلماء . دار الفكر . ط ١ ، ١٩٩٩ م .

أولاً : بالنسبة للمقولة الأولى نجدهم يقولون : أن عصرنا الحاضر عصر متطور متقدم ، وشهد تحولات وتغيرات كثيرة ، " وتعاليم الدين في كل عصر ترتبط بظروفه وأحواله " ، مما يجعل بعضها لايناسب عصرنا الحاضر .

"وأن نظرة كل عصر إلى حقائق الدين نظرة نسبية ، بحسب المعارف المتاحة له " ، وما كنا نؤمن بأنه حق في عصر قد لا يكون حقًا في هذا العصر ، ومن هنا يأتي التساؤل .

ما الثابت في الدين الذي يناسب كل عصر ؟ وما المتغير الذي يتغير تبعًا لتغير المعرفة وتغير الأحوال ؟ .

ثم يتبع التساؤل : ما الإلهي في الدين ، وما البشري ؟ .

وهذه هي الفروض الخمسة هي التي تبنى عليها فكرة العصرانية ، وتشترك فيها كل الحركات والدعاوى العصرانية ، وما اتبعها من الحديث عن فكرة التطور الاجتماعي والثقافي في الغرب ، وولع الناس بهذه الفكرة وسيطرتها على الأذهان، وأن الدين يكون صحيحًا إذا استجاب لكل تغيير ، واستجاب للتطور وعليه كانت النظرة العصرانية للدين ، وكما أوضحنا فقد نشأت هذه الأفكار والمقولات مع اليهودية والمسيحية لأسباب أوضحناها سابقًا ولا حاجة لإعادتها .

لذلك يجب ألا ننخدع ، أو نخدع أنفسنا بالتطور العلمي الحديث ، وبما أنتجه العقل البشري ، ثم نخلطه بأن الإنسان قد تطور اجتماعيًا وعقليًا ، وللنظر مثلاً :

✿ ما كان من قبح أفعال قوم لوط – عليه السلام – منذ آلاف السنين ، وهو مخالف للفطرة البشرية ، فنجده الآن منتشراً في الشرق والغرب ، وفي أكثر المدنيات

العلمية الحديثة في " أوروبا ، والولايات المتحدة الأمريكية " حيث نجد الملايين هناك يفعلون أفعال قوم لوط – عليه السلام – ، بل ويفعلون ما هو أقبح بكثير ، وهو أمر معلن ، ويقبله المجتمع ، ويضعه تحت اسم الحرية .

فاين هذا التطور الاجتماعي المصاحب للتطور العلمي ؟! .

ونجد فرعون يغتر بتطور بلاده وتقدمه ، ويرفع الصرح حتى يرى إله موسى ، ويحاربه ، هذا منذ آلاف السنين .

وفي العصر الحديث وجدنا خروشوف" في روسيا " بعد إطلاق أول قمر صناعي في الفضاء يقول :

اطلعنا إلى الآفاق السماوية ، ولم نجد فيها وجوداً للإله ؟ ! فاين هذا التطور العقلي الذي صاحب هذا التطور العلمي الحديث ؟! .

والأمثلة كثيرة .. فيجب أن نعيد قراءة التاريخ ، ونكون منصفين لنرى أي تطور اجتماعي نتحدث عنه وحققه هذا الإنسان الحديث ، وكم أباد ، ومازال ، من البشر بهذا التطور ؟!

لذا وجب علينا جميعًا أن نفرق بوضوح بين التطور العلمي والتجربة العلمية التي تمثل التطور الحقيقي المادي للإنسان ، وبين الأمور الأخرى في الحياة الاجتماعية للإنسان ، والتي يقفز إليها العصرانيون ، ـ ومدَّعوا التجديد ـ ثم يربطونها بالدراسة العلمية الدقيقة ، وبما أحدثه الغرب دونما علاقة بينهما .

وعلى سبيل المثال :

● الربا في الشعبة الاقتصادية ، وأوضاع المرأة في الشعبة الاجتماعية ... وأمثال ذلك ، لم تخضع لدراسة علمية دقيقة ، ولا نظر إليها البحث العلمي

المجرد ، بل هي أمور حياتية ، وعادات وتقاليد ، فلم يثبت العلم أن الاختلاط بين الرجل والمرأة أمراً علمياً ، أو أنه ضروري في المختبرات والتجارب ، وغيرها من الأمور الإباحية،والتي تفسد الذوق السليم ، وتهبط بالإنسان إلى مرتبة الحيوانية .

فمن المستحيل عقلاً أن نقفز هكذا من التطور العلمي التجريبي لنهدم الدين والأخلاق ، ونُحطّ من فضائل الإنسان ... !! .

ثم نقفز مرة أخرى لإطلاق عموميات ، ونقول بأن حقائق الدين مسألة نسبية يدركها كل عصر بحسب المعرفة المتاحة . هكذا بكل بساط ... فأين العقل هنا ؟! ، وأين العلم هنا ؟! .

والمقصود هنا من كل تلك المحاولات القضاء على الدين ، وهي دعوة للتحريف في الدين الإسلامي ليناسب العصر ، وهكذا تحريف من عصر إلى عصر حتى يتلاشى الدين ! وكأنه شريعة من وضع البشر ... وهذا خلط مرفوض لايقبله عقل ، ولاينخدع به مسلم .

ونؤكد هنا على أن مصادر حقائق الدين ثلاثة أشياء :

[١] النصوص الموحاة . " القرآن والسُّنَّة " .

[٢] معاني هذه النصوص .

[٣] الاستنباط من هذه النصوص .

وهناك منهج علمي لتوثيق النصوص، ومنهج لطريقة فهمها، ومنهج للاستنباط منها ، وما يتوصل إليه عن طريق هذه المناهج حقائق لاشك في ذلك ، وأما ما يحدث من خطأ في الفهم أو الاستنباط ، أو تغيير في الظروف ، والأحوال في المجتمعات يؤدي إلى تغيير في الفهم أو الاستنباط ، أو ما يستجد من أمور،

فهذا شيء آخر ، وله أسلوب ومنهج للتعامل معه ، ويتولاه العلماء .

وبوضوح أكثر حول موضوع النهضة ، فإن أي طرح لموضوع النهضة دون وضع الظروف ، والشروط والهيكليات التي رتبتها السيطرة والهيمنة الإمبريالية ، والصهيونية من احتلال الأرض ،وغزو النفوس ، وتمزيق وحدة الأمة ، وبناء هياكل الدولة العلمانية القومية بمؤسساتها العسكرية، والتعليمية، والاقتصادية والاجتماعية ، إلى غيرذلك بما يخدم منظومة الحضارة الغربية ؛ ليبقوا هم الرحماء ... إن أي طرح لموضوع النهضة لايضع في منطقه الأول تحرير النفوس والأرض ، ما هو سوى حرث في البحر ، وهو كلمات وأماني تؤدي إلى ضياع الوقت ، وتفتيت الجهود ، وتخدير النفوس .

إن البعض مازال مصرًّا رغم كل البراهين القاطعة على عدم رؤية أن الدخول إلى نادي النهضة لايتعلق فقط بالجهود المبذولة ، بل أولاً ، وقبل كل شيء بقرار ما يسمى الدول المتقدمة. ولننظر إلى " إسرائيل " فإن عامل وجودها وبقائها الرئيسي ليس هو التطور والعلم ، بل قرار الدول الغربية ، وأمريكا بمساعدتها ، والأمر لايتعلق عادةً بالامكانيات الفنية والقدرات التقنية ، بل يتعلق بالكتل والانتماءات ، ومدى القدرة على التخلق بأخلاقيات الحضارة الغربية ، والقبول بقوانين لعبتها .

وإلا فما علاقة الموسيقى ، أو الكوكاكولا ، أو السماح بمظاهر الانحلال من خلال دعوى السياحة ، وغير ذلك ... ما علاقة ذلك بالتنمية والنهضة ؟!.

- لماذا يجب أن ندمر تقويمنا الهجري ، ونطبق تقويمهم ؟!.
- وما هي العلمية ، أو التقنية في القضاء على الحرف العربي وتحويل شعوب

إسلامية إلى الحرف اللاتيني ؟! .

✪ وما أهمية معركة الملابس والحجاب التي يثيرونها بالتقدم العلمي ؟! .

✪ ولماذا لا يعتبر حكم أحزاب مسيحية " ديمقراطية " ، أو " إشتركية " لبلدانها عودة إلى العصور الوسطى ؟ بينما تقوم الدنيا ولا تقعد إذا نجحت حركة اسلامية عن طريق ثورةشعبية ، أو عن طريق الاقتراع ؟

✪ ولماذا تبذل كل هذه الطاقات والأموال لمحاربة ما يسمى الأصولية الدينية ، ويقصد بها الإسلام ليس إلا ؟! ، في حين تقدم كل الأموال والمساعدات إلى أكثر الحكومات تعصبًا دينيًا وهي اسرائيل ؟ . . .إلى غير ذلك . . . .

إن كل ذلك هدفه إدخالنا في دائرتهم ، في قطبها الأسفل ، بشروطهم ، وبالطريقة التي يريدونها ، وقطعنا عن دائرتنا التاريخية والحضارية ، وقطعنا عن الإسلام ، وهذا هو الهدف الحقيقي لكل أشكال الصراع الحالي .

ولنسأل :

لماذ انهارت الجهود التي نبذلها ، ولماذا لايسمح لنا بالانعتاق من كوننا عالم ثالث ؟ ، رغم توفر الامكانيات العلمية والبشرية والمادية . . . . إلخ [١] .

يقول مراد هوفمان في كتابه (رحلة إلى مكة) :

(إن الغرب يتسامح مع كل المعتقدات والملل ، حتى مع عبدة الشيطان ، ولكنه لا يظهر أي تسامح مع المسلمين . فكل شيئ مسموح إلا أن تكون مسلمًا) !!! .

---

(١) إشكالية الإسلام والحداثة . عادل عبد المهدي . دار الهادي . بيروت ط ١ . ٢٠٠١ م .

وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

فمهما قدّم المسلم من تنازلات لأعداء الإسلام مبتغيًا رضاهم أو التقرب منهم؛ فإن فعله هذا سيعود ذمًّا عليه، يُسخط الله ، ولا يُرضي الأعداء ! فيجمع السيئتين [١] .

وبالنسبة للمقولة الثانية : " أن الشريعة الإسلامية لم تطبق بعد عصر الخلفاء الراشدين" ، فقد تناولناها مع تجديد تاريخ الأمة الإسلامية ، "الفصل الثاني" ، ولا حاجة لتكرارها هنا .

---

(١) ربحت محمداً ولم أخسر المسيح . للدكتور عبد المعطي الدالاتي . ص ٣٠ . مكتبة صيد الفوائد الإسلامية . الإنترنت .

openkandil.com